الفصل الثالث

الحكام

١ – جورج الأول : ١٧١٤ – ٢٧

كان الانجليز أكثر حذقا من الفرنسيين فى شئون الحكم ، كما سيتبين ذلك عما قليل فولتير ومونتسيكو . فبعد أن قطعوا رأس ملك ، وأرسلوا آخر يهرول رعبا عبر المانش ، استوردوا الآن ملكا خلف قلبه وعقله وراءه فى ألمانيا ، ملكا يقضي الأجازات الطويلة فى وطنه هانوفر ، ولا يصعب أن يهيمن عليه برلمان لم يوفق هذا الملك قط فى فهم أساليبه ولغته .

كان بيت هانوفر يمد جذوره فى ألمانيا الوسيطة ، ويرجع بنسبه الملكى الى أدواق برنزويك – لونبورج ، ثم الى هنرى الاسد (١١٢٩ – ٩٥) ، ومن قبله الى أجداده الولف أو الجويلف . وقد أصبحت هانوفر نفسها امارة ناخبة للامبراطورية الرومانية المقدسة فى ١٦٩٢ . وتزوج ناخبها الأول ، ارنست أوغسطس ، من صوفيا حفيدة جيمس الأول ملك انجلترة . وبعد موت ارنست أصبحت أرملته وريثة للعرش الانجليزى بقانون تسوية الوراثة الذى أصدره البرلمان فى ١٧٠١ .

ولكن ولدها جورج لويس ، ناخب هانوفر الثانى ، كدر هناءة هذا الميراث السعيد بزواج تعس . ذلك أن زوجته صوفيا دوروثيا قد استنكرت خياناته ، فدبرت أن تهرب مع الكونت فليب فون كوينجزمارك ، قائد الحرس الجميل . واكتشف جورج المؤامرة ، ولم يسمع بخبر للكونت بعدها قط ، وأغلب الظن انه أعدم (١٦٩٤) . وقبض على صوفيا دوروثيا وحوكمت ، وابطل زواجها ، وزج بها فى السجن طوال الأعوام الاثنين والثلاثين الباقية من عمرها فى قلعة آلدن . وكانت قد ولدت لزوجها بنتا أصبحت أم فردريك الأكبر ، وولدا أصبح جورج الثانى ملك انجلترة .

وماتت صوفيا ، ناخبة هانوفر الارملة ، فى ١٧١٤ ، قبل أن تموت الملكة آن ، ففقدت بذلك منصب الملك ، ولكن ولدها نودى به على الفور ملكا لبريطانيا العظمى وارلنده باسم جورج الأول . وفى سبتمبر وصل الى انجلتره ، بادئا عهدا جديدا فى التاريخ الانجليزى . وجلب معه ابنه وزوجة ابنه ، وعددا من المساعدين الالمـــان ، وخليلتين ، شارلوت فون كيلمانريجى ، التى خلع عليها لقب كونتيسة دارلنجتن ، والكونتيسة ميلوزينا فون در شولبورج ، التى خلع عليه لقب كونتيســة كندال ، وربما تزوجها . ولعل انجلترة كانت متقبلة هـــذا الترتيب باعتباره متفقا واخلاقيات ذلك الزمان ، لولا أن كلتا السيدتين كانت فى عيون البريطانيين قبيحة غالية التكلفة ، فميلوزينا تبيع نفـوذها باثمان باهظة ، حتى أن ولبول شكا منها وهو رب الفساد والرشوة ، وكان جواب جورج أن سال ولبول : الا يتقاضي هو نفسه اتعابا لقـــاء توصياته على طلاب المناصب (١) ؟

فى ١٧١٤ كان جورج الأول فى الحادية والخمسين من عمره ، فارع الطويل عسكرى السمت ، « رجلا بسيطا فذلا » . لا يكترث مثقال ذرة للكتب ، ولكنه كان قد اثبت بسالته فى اكثر من ساحة قتال . وقد قالت الليدى مارى مونتاجيو فى وصفه انه « رجل ابله أمين (٢) » ، ولكنه لم يكن بالغباء الذى يبدو عليه ، وقد اعترفت بانه « كان طيبا على نحو سلبى ، يود ان يستمتع الناس جميعا بالهدوء لو أنهم تركوه يفعل ذلك (٣) » . وما كان احد يتوقـــع ان هذا الرجـــل سيشعر بالاطمئنان واليسر فى بيئة غريبة عليه كهذه البيئة ، ومنصب قلق كهذا المنصب . فلقد استاجرته اولجاركية بريطانية ليحول دون رجوع الملكية الاستيوارتية مرة اخرى ؛ ثم راى أن هؤلاء الانجليز المسيطرين ، الذين هيمنوا على البرلمان ، مصممون على الهيمنة عليه هو ايضا ؛ ولم يستطع أن يغتفر لهم تحدثهم بالانجليزية . واعتقـــد انهم ادنى من عشرائه الهانوفريين . فاعتكف فى خلوات قصر سانت جيمس ، وهـــرب الى هانوفر كل سنة تقريبا ، وبذل ما وسعه من جهـــد ليوجـــه الأموال والسياسة الانجليزية لحماية امارته المحبوبة .

وضاعف من محنته كره ابنه له لانه اعتبره قاتلا . ذلك ان جورج

أوغسطس ، الذى أصبح الآن أمير ويلز (ولى العهد) ، ندد بسجن أمه المتصل ، وتمرد على سطوة خليلات الملك وغطرستهن ، وتشاجر مع وزراء الملك ، وأفصح عن آرائه فى صراحة حملت أباه على اقصائه عن القصر . واعتزل الامير وزوجته كارولين ، اللذان فصلهما أمر ملكى عن أبنائهما ، ليفتتحا بلاطا منافسا في قصر لستر (١٧١٧) . ووفد عليهما نيوتن ، وتشسترفيلد ، وهرفى ، وسويفت ، وبوب ، وسيدات المجتمع المغرور الأكثر حيوية ومرحا ، فوجدوا الأمير أشد فظاظة وغباء حتى من الملك .

وكان هذا التصدع فى الأسرة المالكة منسجما فى عمومه مع انقسام الأقلية الحاكمة والبرلمان الى حزبى التورى (المحافظين) والهويجز (الأحرار) . وقد قدر فولتير أن نحو ثمانمائة رجل هيمنوا على الحكم فى المجالس البلدية ، والانتخابات البرلمانية ، والتشريع القومى ، والادارة والقضاء (٤) . وتوقف كل حديث مزعج عن الديمقراطية ، كذلك الذى أثاره « مستقلو » كرومويل « والمسوون » . وكان التصويت للبرلمان وقفا على أصحاب الملكيات ــ وهم لم يتجاوزا ١٦٠ر٠٠٠ فى هذه الحقبة (٥) ــ وهؤلاء كانوا عادة يقبلون المرشح الذى يزكيه المالك الرئيسي للأرض أو اللورد (٦) المحلى . وانتمى الساسة لأحد الحزبين حسب تأييدهم اما للنبلاء أصحاب الالقاب ، واما للأعيان وأصحاب المصالح التجارية . فأما « رجال الكنيسة الانجليكانية » فاتبعوا مذهب المحافظين ، وأما المنشقون على الكنيسة فأيدوا الاحرار . وكان المحافظون قد عارضوا فى أن يخضع الملك للبرلمان ، وتشبثوا مع الكنيسة الرسمية بنظرية حق الملوك الالهى ، وفكروا قبيل وفاة الملكة آن فى رد الاستيوارتيين المنفيين الى السلطة ؛ أما وقد تربع بيت هانوفر الآن على العرش فقد كان طبيعيا أن يزيحهم الأحرار المعادون لأسرة استيوارت ، وبينما كانت الوزارة الى ذلك الحين تضم عادة رجالا من كلا الحزبين ، نرى جورج الأول يقصر المناصب العليا على الاحرار ، وهكذا أرسي نظام الحكم بواسطة الحزب عن طريق مجلس للوزراء . فلما توقف الملك بعد قليل عن رآسة اجتماعات الوزارة لعدم فهمه الانجليزية ، أصبح العضو المهيمن « وزيرا أول » أو رئيسا للوزارة ، وتقلد شيئا فشيئا المزيد من وظائف الملك وسلطاته .

ورأس الوزارة جيمس ستانهوب سبع سنين . ومن اول قوانينه وأكثرها شعبية رده جون تشرشل ، دوق ملبره ـ الذى اتهمه المحافظون من قبل ـ لجميع مناصبه السابقة ، خصوصا القيادة العامة للجيش . وبعد عودة الدوق من منفاه اعتكف فى قصر بلنهيم ، وهناك عانى آلام المرض الطويل ، ومات فى ١٦ يونيو ١٧٢٢ ، أما الأمة التى اغتفرت له مقتنياته وتذكرت انتصاراته المتعاقبة ، فقد قبلت هذا الحـــكم الذى أصدره عليه بولنبروك ـ « لقد كان رجلا عظيما الى حد لا أتذكر معه هل كانت له أخطاء أو لم تكن (٧) » . وأما أرملتـــه ، وهى ســـارة تشرشل التى ظلت عشر سنوات تحكم حكم الملكات ، فقد انفقت اثنتين وعشرين سنة تقدس ذكراه وتذود عنها . فلما طلب الدوق سمرست يدها اجابت « لو أننى عدت صبية وجميلة كما كنت ، لا عجوزا ذابلة كما أنا الآن ، ولو كان فى وسعك أن تطرح ملك الدنيا بأسرها تحت قدمى ، لما استطعت ابدا أن تقتسم قلبا ويدا كانا فى يوم من الأيام ملكا لجون تشرشل (٨) » . وفى ١٧٤٣ ، قبل وفاتها فى الرابعة والثمانين بعام ، فكرت فى احراق رسائلها الغرامية القديمة ، ولكنها حين اعادت قراءتها شعرت « باننى لم أستطع أن أحرقها » ، فتركتها لتعيش (٩) . ولابد أنه كان هناك خير كثير فى امرأة استطاعت ان تحب بهذا القدر من الوفاء ، وفى رجل استطاع أن يظفر بمثل هذا الحب من امرأة عصية الى هذا الحد .

وحل بولنبروك محل ملبره فى المنفى . ذلك انه بعد ان طرده جورج الأول من الحكومة ، وهدد بتقديمه للمحاكمة بتهمة التفاوض سرا مع الأسرة المالكة التى سقطت ، وكرهه الأحرار والمنشقون على الكنيسة الذين وخزهم بسخريته وخزا موجعا ، واجتنبه رجال الكنيسة لازدرائه اللاهوت المسيحى ـ بعد هذا كله فر الى فرنســـا (مارس ١٧١٥) ؛ وانضم الى جيمس الثالث ، واصبح وزير دولة لدولته التى لا وجود لها ، وعاون على تنظيم تمرد استيوارتى فى انجلترة ، واقترح غزوها من فرنسا . فاعلن البرلمان ادانته بالخيانة ، وصادر ثروته ، وحكم عليـه بالاعدام .

واوشكت حركة رد الاستيوارتيين أن تطيح بعرش جورج الأول

فالمحافظون الكارهون للهانوفريين لانهم أحـــلاف غاصبون ؛ وعامة الناس فى انجلترة ، الراسخون فى الولاءات القديمة ، والتواقــــون سرا للأسرة المنفية ؛ وطبقات اسكتلنده العليا والدنيا ، الفخورة بانها أعطت انجلترة ملكا اسكتلنديا ، الضيقة أشد الضيق بقانون الاتحــاد (١٧٠٧) الذى قضي على البرلمان الاسكتلندى ـ كل اولئك كانوا على استعداد للتحريض على غزوة يقودها الشـــاب الذى اعترف به لويس الرابع عشر ملكا شرعيا أوحد على انجلترة .

وكان جميس فرانسس ستيوارت قد بلغ الآن (١٧١٥) السابعة والعشرين ، وان عرفه التاريخ باسم « المطالب المسنّ بالعرش » . كان قد ربى فى فرنسا ، واشربه المذهب الكاثوليكى معلموه الرهبان ومعاناة أبيه جيمس الثانى اشرابا رفض معه حجة بولنبروك الذى زعم له أنه سيقوى الميل لأسرته فى انجلتره اذا هو وعد باعتناق البروتستنتية . قال له بولنبروك وهو يحاوره ، كيف يمكن حمل الاسكتلنديين المشيخيين (اتباع كلفن) ، والانجليكان المحافظين ، على تأييد رجــل ياتى الى عرشهم بالمذهب الذى قاتلوا للاطاحة به طوال قرن حافل بأشد الاضطراب؟ ولكن جيمس كان صلبا لايلين ، فصرح بانه يؤثر أن يكون كاثوليكيا بغير عرش ، على أن يكون ملكا بروتستنتيا . أما بولنبروك ، البرىء من الايمان والمبادىء ، فقد حكم على جيمس بانه أصلح للرهبنــة منــه للملك (١٠) . وكان البرلمان خلال ذلك (اغسطس ١٧١٤) قد عرض دفع ١٠٠ر٠٠٠ جنيه مكافاة لمن يقبض على جيمس الثالث اذا وطىء تراب بريطانيا .

ثم بدا أن عاملا شخصيا يحول الأحداث الى خدمة قضية المطالب بالعرش ، ذلك أن جون ايرسكين ، ايرل مار ، كان وزيرا لشـــئون اسكتلنده فى السنوات الأخيرة للملكة آن . فلما طرده جورج الأول ، وضع الخطط لثورة استيوارتية فى انجلترة ، ثم أبحر الى اسكتلندة واستنفر الاسكتلنديين لينضووا تحت لواء ثورته (٦ سبتمبر ١٧١٥) وظاهره نفر من النبلاء ، فارتفع عدد قواته الى ستة آلاف راجــل وستمائة خيال ؛ ولكن أدنبره وجلاسجو والسهول الجنوبية ظلت موالية للملك الهانوفرى . وقررت الحكومة البريطانية الأعدام عقابا للخيانة

ومصادرة الملكية لجميع العصاة . وعبأت ثلاثة عشر الف رجل ، ودعت ستة آلاف آخرين للأسطول ، ثم أمرت دوق آرجيل قائد حاميتي ادنبره وستيرلنج بأن يخمد التمرد . فالتقى بقوات مار عنـــد شريفموير (١٣ نوفمبر ١٧١٥) فى معركة لم يستطع اى الفريقين أن يدعى لنفسه فيها نصرا حاسما . وتقدمت قوة اسكتلندية أخرى فى تهور الى ثلاثين ميلا من ليفربول بدلا من أن تنضم الى مار ، مؤملة عبثـــا أن تثير وتحمى حركات التمرد الاستيوارتية فى المدن الانجليزية . وفى برستون طوقهـا جيش حكومى وأكرهها على التسليم دون قيد أو شرط (١٤ نوفمبر) .

ولا بد أن جيمس الثالث كان على علم بهذه الأحداث قبل أن يقلع من دنكرك فى ٢٧ ديســـمبر . وكان بولنبروك قد انـــذره بأن ثورة استيوارتية لن تنشب فى انجلترة . ولكن المطالب بالعرش دفعه للمضي فى هذه المغامرة ايمانه بالشرعية الالهية لقضيته ، مضافا اليه ١٠٠ر٠٠٠ كراون من الحكومة الفرنسية وثلاثين ألفا من الفاتيكان . فلما رسا على ارض اسكتلنده انضم الى جيش مار فى بيرث ، ووضـــع الخطط لحفل تتويج مهيب فى « سكون » . ولكن صمته واكتئابه ، وشكواه من انه خدع فى مدى انتشار التمرد ، كل أولئك لم يضف شيئا الى حماسة الاسكتلنديين ، فشكوا بدورهم من انهم لم يروه قط يبتسم ، ونادرا ما سمعوه يتكلم (١١) . اضف الى ذلك انه كان يرتعد من الملاريا، ولم يحتمل شتاء الشمال . ورأى مار أن جنده لا يصلحون للمعركة ، فامرهم بالتقهقر الى مونتروز ، وبحرق جميع المدن والقرى والمحاصيل فى اثرهم لتعطيل آرجيل عن مطاردته . واسـف جيمس على هـــذا التدمير ، وترك نقودا ليعوض بعض ما خسر اولئـك الذين تضررت أملاكهم . فلما اقترب جيش آرجيل الذى كان متفوقا جدا من مونتروز فر جيمس ، ومار ، وغيرهما من قادة الثورة مسرعين الى الساحل ، وابحروا الى فرنسا (٤ فبراير ١٧١٦) . واستسلمت القوات الثائرة أو تفرقت فى كل مكان .

ورحل معظم الأسرى ليخدموا عبيدا فى المستعمرات ، واعدم سبعة وخمسون ، وتقرر اعدام اثنى عشر نبيلا اسكتلنديا التجأوا الى فرنسا ، اذا عادوا منها . وكان جيمس قد راوده الأمل فى أن يرسل فليب اورليان

جنودا يخفون لنجدته فى اسكتلنده ، ولكن فرنسا كانت الآن تفكر فى التحالف مع انجلترة ، فحثت جيمس على أن يرحل عن أرض فرنسا . ومن ثم أقام حينا فى أفنيون البابوية ، ثم فى روما .

وبقى بولنبروك فى فرنسا حتى ١٧٢٣ ، واذ كان يجيد الفرنسية فانه انطلق على سجيته فى الصالونات بين الفلاسفة . وكان يحذق كل شيء الا السياسة ، فاشترى أسهما فى مشروع لو ، ثم باعها بربح كبير قبل أن تنفجر « الفقاعة » . واذ كان قد ترك زوجته فى انجلترة ، فانه اتصل اتصالا كاد يكون شريفـا بمارى ديشـــان دمارسيى ، وهى مركيزة فيليت الأرملة . وكانت فى الأربعين ، وهو فى الثامنة والثلاثين . وكانت ككثيرات جدا من النساء الفرنسيات قد احتفظت بجاذبيتها مع أنها فقدت بعض جمالها ، ولعل تهذيبها وحيويتها وذكاءها هو ما جذبه اليها ، فعشقها ، ولما ماتت الليدى بولنبروك تزوج المركيزة ، وذهب ليعيش معها فى لاسورس . وهناك زاره فولتير كما سـبق القـــول (١٧٢١) . قال الفيلسوف الشاب « وجدت فى هذا الانجليزى الشهير كل علم أمته ، وكل أدب أمتنا (١٣) » .

على أن قمع الثورة كان قد أطاح برءوس بعض النبلاء ، ولكنه لم ينتقص من العطف على الاستيوارتيين فى بريطانيا . وقد قضت القوانين الثلاثية الأعوام التى صدرت فى ١٦٤١ و ١٦٩٤ بالا يستمر أى برلمان أكثر من ثلاث سنين . ومن ثم واجه أول برلمان لجورج الأول فى ١٧١٧ احتمال انتخابات قد تعود فيها أغلبية للمحافظين والمتشيعين للاستيوارتيين . وتفاديا لهذا الخطر قرر البرلمـــان ، بمقتضي قانون السبع السنين الذى أصدره فى ١٧١٦ ، أن يمد فى عمره أربع سنوات اخرى ، وقضي بأنه يجوز بعد ذلك لجميع البرلمانات أن تستمر سـبع سنين . قال المع حفدة ملبره « كان هذا أجرا وأكمل تأكيد لســيادة البرلمان عرفته انجلترة الى ذلك الحين (١٣) » . وصدق جورج الأول على القانون الجديد لخشيته هو أيضا من فوز المحافظين ، وكان معنى هذا فعلا أن الهانوفريين أضطروا للتخلى عن سلطتهم لكى يملكوا .

ورغبة فى المزيد من الحماية للأسرة المالكة الجديدة ابرم ستانهوبه

مع فرنسا وهولنده (١٧١٧) حلفا ثلاثيا أنهى التاييد الفرنسي لمطالب أسرة ستيوارت ، والتاييد الانجليزى لأسبانيا ضد فرنسا • وفى ١٧٢٠ وقعت فرنسا صلحا ينطوى على الخضوع ، واستطاع جورج الأول أن يتربع على عرشه الأجنبى فى السنين السبع الباقية له من أجله بقدر أكبر من الاطمئنان • وفى ١٧٢٦ أرسلت اليه زوجتـه التى ما زالت حبيسة خطابا مرا ، وتحدته أن يلقاها بعد عام أمام كرسي قضاء الله • وما لبثت أن ماتت بالحمى المخية • وتقول رواية أن عرافا تنبا بأن جورج الأول لن يعمر أكثر من عام بعد زوجته • ففى ١٧٢٧ بدات صحة الملك تتدهور • وفى يونيو غادر انجلترة ليزور بلده الحبيب هانوفر • وقرب اوزنابروك القيت فى عربته ورقة مطوية ، وكانت تحوى لعنة تركتها له زوجته وهى فى النزع • فلما قرأها الملك اضطرب اضطرابا شديدا ، وما لبث أن قضي نحبه فى ١١ يونيو (١٤) •

٢ — جورج الثانى والملكة كارولين

وتلقى ابنه وعدوه النبا كانه القصاص العادل الذى أصـدرته العناية الالهية وامهلت تنفيذه امهالا غير معقول • وحين قـدم رئيس أساقفة كنتربرى لجورج اوغسطس وصية الملك الراحل حشاها فى جيبه ولم يذعها قط • وقال بعضهم انه تكتم أمرها لانها اقترحت الفصل بين تاجى هانوفر وانجلترة ، وزعم آخرون أنها تركت لحفيـده فردريك لويس ، ولخليلته أو زوجته دوقة كندال ، ولابنته ملكة بروسيا ، مبالغ كبيرة كانت كفيلة بالانتقاص من ثروة الملك (١٥) • ولكن التـاريخ يجهل الحقيقة •

كان جورج الثانى كابيه جنديا باسلا ، ففى الخامسة والعشرين ابلى بلاء حسنا تحت قيادة يوجين وملبره فى معركة اودينارد (١٧٠٨) ؛ وفى الستين سيقود جنده الى النصر فى ديتنجن (١٧٤٣) • وكثيرا ما كان ينقل عادات المعسكر الى البلاد ، فيصيح غاضبا ، ويغدق على وزرائه نعوتا مثل « الأوغاد » و « الشديدى الغباء » و « المهرجين(١٦) » ولكنه جاهد ليتقن صناعة الملك ، وتكلم الانجليزية دون خطا وان شابتها لكنه وستفالية ثقيلة (١٧) ، ولاحظ فى ضيق ولكن فى حذر تلك القيود

التى فرضها البرلمان على سلطاته ودخله ، وظل ثلاثة عشر عاما يساند ولبول فى جهوده لتمكين جون بول من ايفاء ديونه ونشر السلام فى ربوعه . وكان كابيه كثير التردد على هانوفر ، الأمر الذى أبهج كل من يعنيهم الأمر . ثم تشاجر كابيه مع أمير ويلز (ولى العهد) لأنه « كان من بعض تقاليد الأسرة الموروثة كراهية الابن البكر (١٨) » كما قال هوراس ولبول . وكان له كابيه خليلات ، ولو لمجاراة المجتمع العصرى ، ولكنه على عكس أبيه أحب زوجته حبا جما .

كانت كارولين ، ابنة الحاكم جون فردريك أمير برندنبورج - آنزباخ ، قد نشأت فى بلاط شارلوتنبورج ، وهو بلاط أخت جورج الأول ، صوفيا شارلوت ، أول ملكة على بروسيا . وهناك التقت بليبنتز واستمتعت بمناقشات الفلاسفة ، واليسوعيين ، واللاهوتيين البروتستنت ، وبلغت درجة فاضحة من التحرر والتسامح الدينيين . وقد عرض عليها شارل السادس ، الامبراطور « الرومانى المقدس » يده وعقيدته ، فرفضتهما جميعا ، وتزوجت (١٧٠٥) من جورج أوغسطس ، أمير هانوفر الناخب « القصير القامة الأحمر الوجه (١٩) » ، وظلت وفية مخلصة له الى النهاية رغم حدة طبعه وطبعها ، وخلال كل عثراته وخلياته . وكان جورج يعنف فى معاملتها ، ويكتب لها الرسائل الطويلة عن علاقاته الغرامية ، ولكنه كان يحترم عقلها وخلقها احتراما كفى لتركها تحكم انجلترة (بمساعدة ولبول) خلال فترات غيابه الطويلة ، وتوجه سياساته حين يعود .

ولم يكن لها - فيما عدا شبابها البض النضر - من مفاتن الجسد التى تسيطر بها على زوجها غير يدين حلوتين ، وبعض لطائف فى السلوك و الحديث ؛ ولكنه كان معجبا بتكوين صدرها ، وأمرها أن تعرضه عرضا مقنعا (٢٠) . وازدادت بدانة مع كل حمل ، وترك الجدرى فى وجهها ندوبا ، وكان صوتها عاليا صادرا من الحنجرة ، وكانت تحب الدس وتولع بالسلطة . ولكن الانجليز بدءوا شيئا فشيئا يحبون دعابتها الصادرة من القلب ، وادركوا آخر الأمر أى تضحية من صحتها وسعادتها كانت تبذل لتكون زوجة وملكة صالحة ؛ ورأى مفكرو انجلترة فى دهشة أن هذه البرندنبورجية الجلفة كانت تملك ذهنا وأذنا يتذوقان

أدب العصر ، وعلمه ، وفلسفته ، وموسيقاه .

وكاد بلاطها يستحيل صالونا . فقد استقبلت فيه نيوتن ، وكلارك وباركلى ، وبطلر ، وبوب ، وتشسترفيلد ، وجاى ، والليدى مارى مونتاجيو . وأيدت المبادرة التى اتخذتها الليدى مارى فى التطعيم ضد الجدرى . وانتشلت ابنة لملتن من وهدة الفقر ، وناصرت هندل طوال نزوات الجمهور والملك . وتبرعت من جيبها الخاص بالمال اللازم لتشجيع المواهب الشابة التى تفتقر الى المال (٢١) ، وانقذت المهرطق هويستن بمعاش أجرته عليه ، وأيدت الحرية الدينية للاسكتلنديين المتشيعين لأسرة ستيوارت ودبرت تعيين الاساقفة الأنجليكان على أساس علمهم لا سلامة عقيدتهم . وكانت هى نفسها من القائلين بالربوبيـــة المتشـــككين فى الخلود(٢٢) ؛ ولكنها رأت ان الكنيسة الرسمية يجب ان تمولها الدولة باعتبارها معينا للشعب على الفضيلة والهدوء(٢٣) . قال فولتير « لا شك أن هذه الاميرة ولدت لتشجيع الفنون ولخير النوع الانسانى .. انهـــا فيلسوفة لطيفة تتربع على عرش (٢٤) » .

وكان لها من الفلسفة حظ بصرها بالجانب الفكه فى مآسي الحياة ، حتى فى ساعة احتضارها . وكانت مصابة اصابة قاتلة بفتق اخفته طويلا عن الجميع الا الملك ، فنصحته وهو يومها فى الخمسين بان يتزوج ثانية بعد موتها . وكشف جوابه ، وهو مخلص فى حزنه ، عن طبيعة عصره « لا ، ساتخذ خليلات » قالت « رباه ، هذا لا يمنعك من الزواج (٢٥) » وقد بكاها بعاطفة لم تعهد فيه فقال « لم ار قط امراة تستحق أن تربط حذاءها (٢٦) » . وبعد ثلاثة وعشرين عاما ، وتنفيذا لوصيته ، فتـح نعشها فى كنيسة وستمنستر لترقد عظامه الى جوارها .

٣ ـ روبرت ولبـــول

لقد كان لانتصارها الباسل لولبول امام عصابة من الأعداء طلاب المناصب وتجار الحروب الفضل فى تمكينه من أن يعطى انجلترة عشرين عاما من الرخاء والسلام . ولم يكن ولبول « بالولىّ » أو القديس ، ولعله كان أفسد وزير عرفته انجلترة فى تاريخها ، ولكنه كان ايضا من خيرة

وزرائها ففى ذلك العصر الفاسد ما كان للحكمة أن تحكم الا عن طريق الرشوة والفساد .

كان روبرت قد نذر للكنيسة باعتباره أصغر الأبناء فى أسرة نورفوكية عريقة ، وفى ايتن التى زامل فيها غريمه المستقبل بولنبروك كان هذا هدف دراسته . ولكن موت اخوته الكبار جعله الوريث لثروة الأسرة ؛ ولما كانت الأسرة تسيطر على ثلاث دوائر انتخابية ، فانه لم يجد عناء فى التحول بنجاح من اللاهوت الى السياسة . وحين بلغ الخامسة والعشرين دخل مجلس العموم عضوا فى حزب الأحرار (١٧٠١) ، وعين وزيرا للحرب (١٧٠٨) بفضل اتصالاته ، وماله ، وذكائه الحاضر ، وتمكنه من المالية الادارية . وفى ١٧١٢ عزله المحافظون الفائزون ، وزجوا به فى برج لندن بتهمة الفساد ، ولكن رائحة الذهب كانت قد غدت من الثبات وقوة السلطان بحيث أحدثت تبلدا فى الأنوف ثم يلبث أن افرج عنه ، وأعيد انتخابه ، وعين وزيرا للخزانة (١٧١٥). وحملته تعقيدات السياسة على الاستقالة فى ١٧١٧ . وفى ١٧٢٠ أقنع انهيار شركة بحر الجنوب وتبرير انذاراته الجميع حتى خصومه بأنه أصلح الرجال لرد انجلترة الى حالة الاستقرار المالى . فلما عاد الى منصب وزير الخزانة (١٧٢١) أوقف حالة الذعر كما سبق القول ، بوضعه مصرف انجلترة ظهيرا لالتزامات الشركة ، وسدد بالتدريج كل دين الشركة للشعب وقدره ٧،٠٠٠،٠٠٠ جنيه (٢٧) . وكافأ المقامرون الشاكرون ولبول باثنين وعشرين عاما من السلطة .

وقطع اعتلاء جورج الثانى العرش سلطان ولبول برهة . ذلك أن الملك الجديد كان قد أقسم ليكونن خصما لدودا لكل من خدموا أباه ؛ فعزل ولبول ، وطلب الى السير سبنسر كومتن أن يشكل وزارة جديدة . ولكن سرعان ما أظهر كومتن قصور مواهبه واعترف به . فنصحت كارولين زوجها بأن يرد ولبول الذى دعم حجتها بوعده الملك والملكة براتب أكبر . وقبل السير سبنسر لقب الأيرل شاكرا ، واستعاد ولبول حكمه . وكان أول من أطلق عليه لقب « الوزير الأول » ، على سبيل التحقير (كما كانت الحال فى ألفاظ « المسيحى » ، و « البيورتانى »

و « المثودى ») • وكان أول رئيس للوزراء يتخذ داوننج ستريت قصرا رسميا له •

ويلقى خلقه بعض الضوء على فن النجاح السياسي • فهو لم ينفق فى الجامعة غير سنة ، وكان ضعيفا من حيث الاعداد التعليمى المعهود فى روءساء الوزارات البريطانيين • ولم يكن فى سلوكه أو كلامه كبير تانق • يقول ماكولى انه « اذا كف عن حديث السياسة لم يستطع أن يتحدث الا عن النساء ، وكان يفيض فى موضوعه المحبب بحرية صدمت حتى ذلك الجيل الذى لم يتحرج فى الفاظه (٢٨) » • ولم ير ابنه هوراس أن فيه قصورا لانه لم يقرأ من الكتب الا القليل ، « فلقد عرف البشر ، لا كتاباتهم ، واسترشد بمصالحهم لا بنظمهم (٢٩) » • وكان ملما بقدر من اللاتينية يكفى لاستعمالها وسيط تفاهم بينه وبين جورج الأول ، لأن ذلك الملك كان يجهل الانجليزية ، وولبول لم يعرف لا الالمانية ولا الفرنسية • وكانت له كل صفات جون بول ، اللهم الا المشاكسة ، فهو بدين ، صريح ، مخلص ، ودود ، عملى ، يستمتع بالولائم والشراب ، ولكنه يكد ويكدح اذا دعاه داعى العمل ؛ وربما كان فيه أيضا من أوجه الشبه بجون بول انه آثر خشخشة كيسه على صليل سيفه •

أما الأخلاق فلم يكد يملك منها اى حظ • فقد عاش سنين فى زنا مفضوح دون أن يبدى كبير احترام للياقة المهذبة التى تراعيها الأرستقراطية فى رذيلتها • وكان يمزح مع الملكة كارولين عن خليلات زوجها ، فلما ماتت نصح بناتها بدعوة وصيفات الشرف ليسرين عن الملك المحزون • وكان يسخر من الدين ، وحين دنت منية كارولين ارسل فى طلب رئيس أساقفة كنتربرى قائلا « لا باس بتمثيل هذه المهزلة ، وان رئيس الاساقفة لكفيل بحسن تمثيلها • ولكم ان تطلبوه باسرع ما تريدون • فلن يضر الملكة ، ولن ينفعها ، وسيرضي هذا جمع المغفلين العقلاء الطيبين ، الذين سينعتوننا بالكفر اذا لم نتظاهر باننا مثلهم من كبار المغفلين (٣٠) » • ولم يكترث للدوافع النبيلة أو ادعاءات التجرد من الانانية • وقد توسل بمنصب الدولة لجمع ثروة خاصة كما فعل ملبره • ووجد المناصب السياسية المجزية لولده هوراس وغيره من ذوى قرباه • وانفق

٢٠٠ر٠٠٠ جنيه ليشيد بيوتا فخمة فى ضيعته بهوتون ، وزينها بلوحات قدرها هوراس بمبلغ ٤٠ر٠٠٠ جنيه ، وكان بيته فيها مفتوحا لأهل نورفوك جميعا (٣١) . وكان فى سخاء جون بول لانه (اذا صدقنا خصومه) لم يستطع أن يفرق تفريقا واضحا بين مال جون بول وماله الخاص .

واستعمل المال ليشترى أعضاء البرلمان كما استعمله ريشليو ليشترى الجيوش ، وهنرى الرابع ليسكت الأعداء . وكان ولبول يستخدمه ملاذا أخيرا بعد أن تعييه الحجج الأكثر لينا . ذلك أن الفساد البرلمانى الذى ظهر فى عهد تشارلز الثانى بلغ النقطة التى لم يمكن عندها التعامل مع البرلمان ، خيرا كان الهدف أم شرا ، الا « بالتشحيم » على نطاق واسع . واحتفظ ولبول باحتياطى سرى – وحتى بحجرة خاصة – لشراء الكراسي والأصوات ومحررى الصحف ، وقيل انه أنفق ٥٠ر٠٠٠ جنيه كل عام لاعانة الدوريات لتشرح وجهة نظره (٣٢) . وفى ١٧٢٥ حث جورج الأول على انشاء « وسام الحمام الأسمى » الذى يتألف من الملك ، ورئيس أكبر ، وستة وثلاثين فارسا من الزملاء ، فقد رأى لولبول ، كما رأى نابليون من بعده ، أن حكم الرجال بالأوشحة أقل تكلفة من حكمهم بالمال .

وقد استخدم هذه الأساليب الفاسدة ليحتفظ لانجلترا بالرخاء والهدوء . ولم تبرر غاياته وسائطه ، ولكنها كشفت عن الجانب الأفضل فى خلقه . فلقد كان رجلا حسن النية ، عقد العزم على أن يحفظ لبلده الاستقرار والثبات رغم كل زعازع السياسة الحزبية ، وأنواء المصالح الطبقية ، وصيحات غلاة الوطنية المطالبين بالحرب . وقال ان شعاره ان يترك الشرّ نائما . واذا كان هذا المبدأ قد ترك حكمه غير متميز بفتوح أو اصلاحات ، فانه اكتسب ثناء المنصفين . واضطر خصومه الى الاعتراف بانه لم يكن محبا للثار ولا حقودا ، وأنه كان أجدر بالثقة ، لا بل أكثر ايمانا ، فى صداقاته مما ينتظر من انسان خبر جوانب البشر الأكثر انحطاطا (٣٣) . ولم يكن لديه خطط بعيدة للمجد والعظمة ، ولكنه عالج كل مشكلة حين تعرض له بالكثير من الدهاء والتسامح واللياقة ، حتى اغتفرت له انجلتره فى النهاية كل أخطائه الا حبه للسلام .

وقد وفق تشريعه الاقتصادى بين الأعيان ملاك الأرض وطبقة

رجال الاعمال . فحاول أن يخفض الضرائب على الارض ، وأيد العقوبات الصارمة على العدوان على الملكية . ثم رحب فى الوقت ذاته بظهور الرأسمالية . وخص التجار ورجال الصناعة بمنح التصدير ورسوم الاستيراد ، وبدا غير مكترث لفقر العمال المحرومين من الأرض فى القرى ، والبرولتاريا المتكاثرة فى المدن ؛ والظاهر أنه أحس أن سوء توزيع الثروة نتيجة لا مفر منها لسوء توزيع الطبيعة للكفايات . واذا استثنينا تلك المنح والرسوم فانه نادى بسياسة حرية التجارة قبل الفزيوقراطيين الفرنسيين وآدم سمث بزمن طويل ؛ وقد خفض الضرائب على ١٠٦ سلعة تصدير فى سنة واحدة ، وعلى ثمان وثلاثين سلعة استيراد ، وازال الكثير من القيود على تجارة المستعمرات الامريكية ، وكان رايه أن الاقتصاد الانجليزى يزكو فى ظل أقل القليل من التشريع الحكومى . وقد برر الزمن رايه ، فنمت الثروة القومية بسرعة رغم ما شابها من سوء توزيع ، وزادت ايرادات الحكومة ، وبفضل التصرف فيها بقصد وكفاية كسب ولبول الثناء عليه باعتباره « خير وزير للتجارة أنجبته البلاد (٣٤) » .

على ان مشروع قانونه الخاص بضريبة الانتاج منى بافدح الهزائم (١٧٣٣) . ذلك أن مهربى التبغ والنبيذ كانوا يحرمون الخزانة من الرسوم الجمركية ، ويحملون الملكيات باكثر من نصيبها فى الضرائب . وتفاديا لهذا الضرب من المشروعات الحرة اقترح ولبول ضريبة انتاج (وهى شريحة « تجنب » للحكومة) تفرض على هذه السلع حيثما اختزنت أو بيعت فى انجلترة . وخول لموظفى الضرائب (« رجال الانتاج ») أن يفتشوا أى بيت فى أى وقت ، وكان الأشخاص الذين يتضح أنهم اخفوا سلعا خاضعة للضريبة يعاقبون بالغرامة أو السجن . وهب الى الاحتجاج كل من له صلة باستيراد التبغ أو النبيذ أو تهريبهما أو بيعهما أو استهلاكهما . وندد خصوم ولبول فى مجلس العموم بالضريبة ، وطريقة تنفيذها ، قائلين انها اجراء تعسفى من طاغية مستبد ، وعدوان فظيع على الحرية البريطانية . « لقد اخبر اعضاء البرلمان ولبول بانهم لا يرون باسا فى أن ينقدهم اجرا على شرورهم العادية ، أما هذا الاقتراح فهو يتجاوز حدود فسادهم (٣٥) » كما أوضح فردريك الأكبر — أو لعلهم املوا أن يحلوا محله فى الاشراف على

المال العام . وراجت النشرات من آلاف النسخ تسب الوزير بلغة سوقية مفعمة بالحماسة . وتقاطرت الجشود حول وستمنستر هول ، وأحرقوا دمى تصور ولبول فى عشرات الحرائق ، وحاولوا تمزيقه اربا وهو يغادر كنيسة القديس ستيفن ؛ لقد استثيرت الأمة الى شفا الثورة . وخافت الملكة كارولين على ولاء الجيش ، وارتعدت فرقا على سلامة الأسرة المالكة الجديدة . وسحب ولبول القانون مسلما بالهزيمة ، ومن هذه اللحظة أضمحل سلطانه . وتكتل خصومه ليجهزوا عليه .

٤ ـ بولنبروك

وكانوا خصوما كثيرين متنوعين . فتآمرت جماعة منهم مازالت متشيعة لأسرة ستيوارت ، مع المطالب بالعرش ، وسنراها بعد قليل تنتشي بمغامرة « الأمير الجميل الشاب تشارلى Bonnie Prince Charlie " و « شلة » أخرى راحت ترقص حول فردريك لويس ، أمير ويلز (ولى العهد) ، عدو الملك ووريثه . وكان أعظم كتاب العصر الانجليز يناوئون الوزير ـ سويفت ، وبوب ، وفيلدنج ، وآربتنوت ، وطومسن ، واكينسايد ، وجاى ؛ تهكموا بسلوكه ، وفضحوا أخلاقه ، وعابوا سياساته ، ولاموه على قطع تلك المعونة السخية التى كانت تغدق على المؤلفين والتى تفردت بها الحكومة فى عهد وليم الثالث والملكة آن . أما المحافظون المتعطشون لرحيق المنصب فقد استعدوا عليه أصحاب السلطان سرا ، واستعانوا بالشعراء وأثاروا ثائرة البرلمان فى عزمهم على أن يخلفوا هذا الوزير الشبيه بفولستاف على مزود الوزارة . وعبر وليم بلتنى ، وتشسترفيلد ، وبت الصاعد ، باصواتهم عن قضيتهم ، ودافع عنها بولنبروك فى غير هوادة بقلمه القتال .

وكان بولنبروك قد نال فى ١٧٢٣ عفوا ملكيا يسمح له بالعودة الى انجلترة واستعادة أملاكه ، ولكنه ابعد بنفوذ ولبول عن مناصب الدولة وعن عضوية البرلمان باعتباره رجلا تعددت خياناته وشك فى ولائه . على أن هذا لم ينتقص من سلطانه . ففى بيته بلندن التقت صفوة انجلترة ، مفتونة بوسامته والمعيته وعبير اسمه . هناك ، وفى بيته الريفى ، راح يتراشق بالسخريات مع سويفت ، وبالهرطقات مع

بوب ، وبالأغاني الشعبية مع جاى ؛ وهناك ناضـــل ليوحـــد بين المحافظين الجياع وبين الاحرار الذين لم يظفروا بما يشـــبعهم من الرضا ، فى معارضة متكتلة ضد ولبول ؛ وهناك نظم محررى وبرنامج مجلة ـ سميت أولا (١٧٢٦) « السيد الريفى » ثم «الفنان» ـ راحت تكيل اللطمات ، أسبوعا بعد أسبوع ، لكل شيء صنعه ولبول أو أراد أن يصنعه. وكتب بولنبروك بقلمه أشد المقالات أذى ، وهى أروع نثر سياسي شـهده العصر بعد اضمحلال سويفت . وقد أهدى سلسلة من تسعة عشر خطابا (١٧٣٣ ـ ٣٤) « رسالة فى الأحزاب » ـ الى ولبول تهكما منه . كتب تشسترفيلد لابنه يقول « لم أكن اعرف مبلغ قوة اللغة الانجليزية حتى قراتها (٣٦) » .

أما آفة بولنبروك فكانت خلقه . فلقد كان ادبه الجم (وهـــو ناموسه الخلقى الوحيد) يفارقه اذا أحبطت مشـــيئته او عورضت آراؤه . وفى يونيو ١٧٣٥ تشاجر مع بلنتى الزعيم الاسمى للمعارضـة وعاد غاضبا الى فرنسا . وهناك اســـتقر مع مركيزته قرب فونتنبلو وواسي جراحه بالفلسفة . وفى كتابه « رسائل فى دراســة التــاريخ وفائدته » (الذى الفه فى ١٧٣٥) وصف التاريخ بانه معمل هائل اجرت فيه الأحداث تجارب لا حصر لها على الرجال ، والاقتصاد ، والدول ، ومن ثم كان خير مرشد الى طبيعة البشر ، واذن فالى تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل . « ان التاريخ هو الفلسفة التى تعلم بالمثال ... فنحن نرى الرجال بطولهم الكامل فى التــاريخ (٣٧) » . وينبغى « ان نعكف عليه بروح فلسفية » وألا يقتصر همنا على فهم الأســـباب والآثار والنتائج المتماثلة ، بل نجاوز هذا الى الطرق التى تبين الى الآن أنها معينة على تطور البشر وسعادتهم (٣٨) . والعقبة فى مثل هذه الدراسات هى « أن قليلا من كتب التاريخ يخلو من الأكاذيب ، وليس بينها كتاب يخلو من الأخطاء .. ولقـــد سرت روح الكذب من المؤرخين الكنسيين الى غيرهم (٣٩) » . ولكن قد يستطيع الطالب القوى العزم بمواجهة كاذب بآخر أن يشق طريقه بينهما الى الحقيقة . وفى ١٧٣٦ عاد بولنبروك الى حلبة السياسة بكتابه « رسائل فى الروح الوطنية » الذى هاجم فساد حكومة ولبول ودعا الى روح جـــديدة من الولاء المنكر للذات فى السياسة الانجليزية .

« لا مونتينى وهو يكتب « مقالاته » ، ولا ديكارت وهو يبنى عوالم جديدة ، ولا ... نيوتن وهو يكتشف ويرسي القوانين الصحيحة للطبيعة على التجربة وعلى هندسة رفيعة ، لا أحد من هؤلاء شعر بابتهاج عقلى أكثر من الوطنى الصادق الذى يسخر كل قوة فهمه ، ويوجه كل أفكاره وأفعاله ، لخير وطنه (٤٠) » .

وتطلع أمله الى الجيل الأصغر . فلما زار انجلترة في ١٧٣٨ سعى الى صداقة الأمير فردريك لويس ، ولى العهد ، الذى كان الآن يقود حركة المعارضة لولبول . ووجه بولنبروك الى سكرتير فردريك الخاص أشهر كتبه وهو « مفهوم الملك الوطنى » . وقد مات فردريك فى ١٧٥١ ، ولكن ابنه ، وهو الذى سيصبح جورج الثالث ، استقى من هذه الصفحات بعض مواد عقيدته السياسية (٤١) . وكان المقال فى جوهره دعوة لنظام ملكى خير كذلك الذى سيحلم به فولتير و « الفلاسفة » فى الجيل التالى . فقد زعم بولنروبك أن انجلترة قد تردت فى هوة لا يقوى على انتشالها منها سوى ملك يرتفع فوق الشيع والأحزاب ، لا بل فوق البرلمان ، ملك يقبض على زمام السلطة ، ويعاقب الرشوة ، ويحكم كما يملك . ولكن الملك الوطنى سينظر الى سلطته لا على انها حق الهى بل أمانة عامة ؛ لا مطلقة ، بل مقيدة بالقانون الطبيعى وحريات رعاياه وحرية الصحافة وتقاليد المملكة ؛ وسيحكم على جميع المسائل حسب تاثيرها فى رخاء الشعب وسعادته (٤٢) . سيشجع التجارة باعتبارها أهم مصدر لثروة الأمة ؛ وسيقوى البحرية فى بريطانيا باعتبارها الحارس للاستقلال القومى ولتوازن القوى فى القارة .

كان « مفهوم الملك الوطنى » محاولة لبناء حزب جديد من المحافظين يلبس مبادىء الأحرار ويتالف من المحافظين الذين أقصوا عن الحكم والأحرار الساخطين ؛ حزب يرفض الولاء للاستيوارتيين ، يستهدف التوفيق بين الأرض والتجارة ، وبين الامبراطورية والحرية ، وبين الخدمة العامة والثروة الخاصة★ . فلما نشر المقال (١٧٤٩) أصبح

★ قارن عبارة اللورد بيركنهد التى اجملت فكرة بولنبروك : « ذهب الاحرار للاستحمام ، فسرق بولنبروك ملابسهم (٤٣) » .

الصيحة التى احتشد حولها الشباب المتحمس الذين تطلعوا الى الملكية بوصفهم « أصدقاء الملك » لتطهر حكومة انجلترة . وقد شكل الفلسفة السياسية لصموئيل جونسن وبت الاب والابن . واوحى بالمحافظة اللبرالية التى دان بها بنيامين دزرايلى ، الذى اشاد كتابه « دفاع عن الدستور الانجليزى » (١٨٣٥) ببولنبروك أبا للديمقراطية المحافظة، والرجل الذى أرسي باعادة تنظيمه العقل العام تنظيما كاملا الأساس لعودة المحافظين الى الحكم (٤٤) » . لقد كان تاثير بولنبروك ودزرايلى هو الذى صب من جديد حزب التورى المهزوم ليخرج منه حزب « المحافظين » التقدمى فى انجلترة اليوم .

٥ ـ كيف تنزلق الدول الى الحرب

وخلال ذلك تعاونت دعاية بولنبروك مع تلك الروح المقاتلة ، التى تسم بها برلمان تسلط المال على تفكيره ، على انهاء حكم ولبول الطويل وكان الوزير الحذر ، الذى اقام سلطته على صون السلام ، ينفر من التورط فى خصومات مع الدول الأجنبية ، فاتفق مع الكردينال فلورى ـ الذى كان يحكم فرنسا وفق مبادىء مماثلة ـ على الاحتفاظ أطول ما يستطاع بالسلام الذى أرسته معاهدة أوترخت ، وترك فيما عدا ذلك ادارة العلاقات الخارجية لأخيه الكفء أوراتيو . ولكن احتفاظ انجلترة بجبل طارق ، وتنافس انجلترة وأسبانيا على السيطرة على أمريكا والبحار ، ولدا عنفا اشد بمضي الزمن . وكان جورج الأول ووزيره ستانهوب قد أكدا لفليب الخامس ملك اسبانيا فى يناير ويونيو ١٧٢١ أن انجلترة ستتخلى عن جبل طارق حالما تسمح بذلك مالية بريطانيا ويرتضيه مزاج البرلمان . ولكن الشعب البريطانى أبى أن يرتضي هذا الاستسلام (٤٥) . فلنتابع الآن الرواية الانجليزية لكيفية انزلاق انجلترة الى الحرب ، فهى تبين غلو الجماهير فى وطنيتهم ونزاهة المؤرخين البريطانيين (٤٦) .

تقول الرواية ان شركة بحر الجنوب « استغلت استغلالا فاضحا » ذلك الامتياز الذى منحته اسبانيا لانجلترة ، وهو السماح لها بارسال سفينة تجارية واحدة فى السنة الى الممتلكات الاسبانية فى الدنيا

الجديدة ، وأن « تجــارة كبيرة غير مشروعة قامت » ، تدير الشركة بعضها ، وتغضي عن بعضها الآخر • وكان رد أسبانيا على هذا تفتيش السفن الانجليزية المشتبه فى قيامها بالتهريب • وزعم روبرت جنكنز انه فى أحد هذه التفاتيش (۷۳۱) فقد احدى أذنيــه ، وقد احتفظ بها ، وعرضها على الناس فى بريطانيا ، وطالب عاليــا بالانتقام • وصادر الأسبان بعض السفن الانجليزية المشتغلة بالتجــارة المشروعة ، وأبقوا الأسرى الانجليز راسفين فى الأغلال ، وقبض القراصنة الانجليز على بعض الأسبان وباعوهم رقيقا فى المستعمرات البريطانية • واستمر التهريب ، واحتجت الحكومة الاسبانية ، وتباطأ ولبول الذى كان يكره الانتقاص من دخل شركة بحر الجنوب المكافحة للبقاء ، رغم انه اشتد فى عقاب التهريب على السواحل الانجليزية • وحبذت طبقة التجـــار الانجليز الحرب ، واثقين من التفوق البحرى ، آمنين من الغزو ، متطلعين الى أسواق جديدة وتجارة متسعة • وأثارت ثائرة الشــعب قصص الوحشية الاسبانية ، الصحيح منها والباطل • وكان الانجليز المطالبون باتخاذ اجراء فى الأمر يشاد بهم وطنيين بواسل ، أما الذين نصحوا بالاعتدال فرموا بالجبن والخور • وعرض جنكنز على البرلمان اذنه فى زجاجة (مارس ۱۷۳۸) ، فالقى بلتنى ، وبت ، وغيرهما من المعارضين لولبول خطبا حماسية عن شرف انجلترة★ • وفى لحن عسكرى معــارض نددت جماهير الشــعب الأســبانى بالانجليز كلابا مهرطقين ، وانطلت عليها قصة زعمت أن ضابطا انجليزيا اكره أسبانيا نبيلا على جدع أنفه وأكله •

أما الحكومتان فقد تصرفتا تصرفا معقــولا • فنشر لاكوادرا ، كبير الوزراء الاسبان ، للاستهلاك الجماهيرى خطابا ساخنا وجهه الى ولبول ، ولكنه اخبره سرا بان أسبانيا ترحب بتســوية النزاع بعــد المفاوضة • ثم وقعت الحكومة البريطانية — فى تحد لهذه الســورة

★ يقول هوراس ولبول أنه حين مات جنكنز تبين أن له أذنين سليمتين تماما • وتحدث بيرك عن « خرافة اذنى جنكنز (٤٧) » • ونسبت رواية أخرى صلم الاذن لقرصان عاقبته بعد ذلك الحكومة الاسبانية (٤٨) •

الجماهيرية الصاخبة ـ اتفاقية الباردو مع أسبانيا (١٤ يناير ١٧٣٩) وفيها نزل كل من الجانبين عن أشياء ، وشكلت لجنة لتسوية كل الشكاوى المعلقة . وقبل نصف الشعب الاسبانى المعاهدة ، ولكن انجلترة باكملها تقريبا أعلنت سخطها عليها . وشكت شركة بحر الجنوب من أن المعاهدة ستنتقض من دخلها وأرباحها انتقاصا شديدا ، وكان السفير الانجليزى بمدريد وكيلا للشركة أيضا . يضاف الى هذا أن « الأزينتـــو » الذى سمحت أسبانيا بمقتضاه لانجلترة بامداد أمريكا الأســـبانية بالعبيـــد الزنوج انتهى أجله فى ٦ مايو ١٧٣٩ ، ورفض فليب الخامس تجديد العقد (٤٥) . ومع ذلك استدعى ولبول الأسطول الانجليزى من البحر المتوسط مواصلا سياسته السلمية ، ثم الغى الامر بعد أن اشتبه خطا فى أن أسبانيا تبرم حلفا سريا مع فرنسا ، وأمر الأسطول بحماية جبل طارق . واحتج لاكوادرا ، وقطع ولبول المفاوضات مستسلما لنوبة الحرب التى أصابت البرلمان والشعب ، وفى ١٩ أكتوبر ١٧٣٩ أعلنت انجلترة الحرب على أسبانيا . واغتبط الشعب الذى كان لا يزال ينعت ولبول بالجبن ، وراحت أجراس الكنائس تقرع فى انجلترة طولا وعرضا . وكتب الآن جيمس طومسن اغنيته الشعبية المثيرة « احكمى يا بريطانيا » التى أقسمت أن « البريطانيين لن يذلوا أبدا » .

وما من شيء يشد من أزر الحكومة عادة أكثر من اعلان الحرب ، فعندها تكمم المعارضة المخلصة للوطن مدافعها . بيد أن وزارة ولبول كانت استثناء للقاعدة . فلقد أحس خصومه بحق أن وزارته غير متحمسة للجيوش الزاحفة أو للاساطيل التى تنفث النيران ؛ وحملوا سوء ادارتة تبعة الهزائم العسكرية كلها ، وعزوا كل الفضل فى انتصار بحرى عند بورتو بيللو (على برزخ بنما) لعبقرية الاميرال فيرنون الذى كان أحد أعضاء المعارضة . وفى فبراير ١٧٤١ أقترح صموئيل ســـانديز عـلى البرلمان أن ينصح الملك باقالة رئيس وزرائه . وهزم الاقتراح ، ولكنه لم يهزم ألا بفضل استجداء ولبول لأصوات الاستيوارتيين . وأفسح له فى الوزارة عاما آخر ، غير أنه أدرك أن قد حان حينه ؛ وأن البلاد تريد تغييرا .

ثم انه أرهق . كتب أبنه يقول « هذا الذى كان فى السنين الماضية

يستغرق فى النوم حالما يمس رأسه الوسادة .. لا ينام الآن أبدا أكثر من ساعة دون أن يصحو ؛ والذى كان على المائدة ينسي دائما أنه وزير ، وكان أكثر مرحا وخلوا من الهموم من جميع رفاقه ، يجلس الآن دون كلام ، وعيناه جامدتان ، ساعة بطولها (٥٠) » . وجاءت الانتخابات الجديدة ببرلمان معاد له عداء ساحقا ، فهزمه فى أمر قليل الشأن ، وفى ١٣ فبراير ١٧٤٢ استقال . واذ كان أعجز من أن يواجه صخب مجلس العموم ، فانه لم يجد مشقة فى اقناع جورج الثانى بأن يمنحه لقب ايرل أكسفورد ، وبوصفه هذا هبط صعدا الى مجلس اللوردات ؛ وكان قد جمع ثروة طائلة تحسبا ليوم سقوطه .

ومات فى ١٨ مارس ١٧٤٥ بالغا الثانية والستين ، بعد أن تجلد لمرض طويل مؤلم . وودعت انجلترة السلام ، وانطلقت لتغزو العالم بزعامة « بت » بعد « بت » .

٦ ــ ارلنده : ١٧١٤ ــ ٥٦

لم يعرف التاريخ أمة ظلمت كما ظلم الارلنديون ، الا فيما ندر . فطوال الانتصارات المتكررة التى احرزتها الجيوش الانجليزية على الثورات الوطنية ، شرّعت مجموعة من القوانين قيدت الارلنديين بالأغلال جسدا وروحا . فصودرت أرضهم حتى لم يبق غير حفنة من الملاك الكاثوليك ، وامتلكها كلها تقريبا بروتستنت عاملوا فلاحيهم معاملة العبيد . يقول تشسترفيلد « ان الفقراء فى ارلنده يلقون من الملاك والسادة معاملة أسوأ مما يلقاه الزنوج (٥١) » . ويقول ليكى « لم يكن من الغريب فى ارلنده أن يكون للكبار ملاك الأراضي سجون دائمة فى بيوتهم لعقاب الطبقات الدنيا عقابا عاجلا (٥٢) » . وكان كثير من الملاك يعيشون فى انجلترة ، وينفقون فيها (حسب تقدير سويفت) ثلث الايجارات التى يدفعها المستاجرون الارلنديون(٥٣). أما المستاجرون ــ الذين طحنتهم الايجارات التى يؤدونها للمالك ، والعشور التى يؤدونها للكنيسة الرسمية التى يمقتونها ، والفروض التى يؤدونها لقساوستهم ــ فكانوا يسكنون أكواخا من الطين يرشح الماء من سقوفها ، ويمشون نصف عراة ، ويتضورون جوعا فى أكثر

الاحايين ، وذهب سويفت الى أن « المستاجرين الارلنديين يعيشون حياة أسوأ من حياة المتسولين الانجليز (٥٤) » • واما الملاك الذين ظلوا يقطنون ارلندة ، ووكلاء الملاك الغائبين ، فكانوا يستعيضون على همجية بيئتهم وعدائها بحفلات الطعام والشراب الصاخبة المخمورة ، والضيافة المسرفة ، والشجار والمبارزة ، والمقامرة على رهانات كبيرة •

ولما كان للبرلمان البريطاني مطلق السلطان على ارلنده ، فانه خنق أي صناعة تنافس انجلترة • وقد رأينا في غير هذا الموضع كيف قضي قانون صدر في ١٦٩٩ على الصناعات الصوفية الوليدة بحظره تصدير الاصواف الارلندية الى أى بلد كائنا ما كان • وبالمثل خنقت القوانين الانجليزية بغير رحمة كل ما احتفظت به ارلنده من تجارة خارجية وسط زعازع السياسة وخراب الحروب • فاثقلت الصادرات الارلندية برسوم التصدير التى عزلتها عن جميع الأسواق تقريبا الا انجلترة(٥٥)، وكان كثير من الارلنديين يعيشون على تربية الماشية وتصديرها لانجلترة، ولكن قوانين ١٦٦٥ و ١٦٨٠ حظرت استيراد انجلترة لماشية ارلندة أو اغنامها أو خنازيرها ، أو لحم البقر أو الضان أو الخنزير ، حتى الزبد او الجبن • وكانت ارلندة تصدر حاصلاتها للمستعمرات الانجليزية ، فاشترط قانون صدر فى ١٦٦٣ الا تستورد سلع أوربية للمستعمرات الانجليزية ، باستثناءات قليلة ، الا من انجلترة ، فى مراكب انجليزية ، بحارتها انجليز • وماتت البحرية التجارية الارلندية • يقول سويفت « ان مزايا المواتىء والمراقىء التى سخت بها الطبيعة على هذه المملكة، ليست اكثر فائدة لنا من حلم جميل يراود رجلا حبس فى زنزانة (٥٦) »•

وارهقت القوانين التى شرعتها انجلترة لرعاياها الارلنديين البروتستنت كما ارهقت الكاثوليك ؛ وفى مناسبة مشهودة انضموا الى الكاثوليك فى التمرد على الحكم البريطانى • وكان تصدير مال الايجارات للملاك الغائبين عن ارلندة قد خلق عجزا في العملة المعدنية بارلندة فى ١٧٢٢ • وعرض ولبول تخفيف هذا العجز باصدار عملة نحاسية • وكانت الخطة معقولة ، ولكن لوثها الفساد المالوف ، فقد منحت دوقة كندال امتياز سك النقود الجديدة ، فباعته لوليم وود صاحب مصانع الحديد نظير ١٠٠٠٠ر١٠ جنيه ؛ ولكى يجمع وليم هذا المبلغ مضافا اليه ربحه

اقترح أن يسك ٨٠٠ر١٠٠ جنيه أنصاف بنسات أو أرباعها . ولما كانت جملة عملة ارلندة المعدنية آنئذ لا تتجاوز ٠٠٠ر٤٠٠ جنيه ، فقد احتج الارلنديون بأنه سيكون ضروريا استعمال النقود النحاسية فى المدفوعات وفى الصرافة ، ودفع الحسابات الأجنبية بما فيهـا ايجارات المـلاك الغائبين بالفضة أو العملة الورقية ، وأن العملات الأرخص ستحمل الناس على اختزان العملات الأفضل أو تصديرها ، وأنه لن يكون فى ارلندة عما قليل عملة غير النقود النحاسية المزعجة . ورغبة فى علاج هذه الشكاوى وافقت الحكومة البريطانية على خفض الاصدار الجديد الى ٠٠٠ر٤٠ جنيه وقدمت تقريرا من اسحاق نيوتن ، مدير دار سك النقود ، يقرر أن أنصاف بنسات وود وافية من حيث محتواها المعدنى بشروط الامتياز ، وأنها أفضل كثيرا من العملات الموروثة عن العهـود السابقة .

عند هذا المنعطف دخل الجدل جوناثان سـويفت ، الناظـر الانجليكانى لكاتدرائية القديس باتريك بدبلن ، بنشره سلسلة من الرسائل تحت اسم مستعار هو م. ب. درابير ، هاجم فيها العملة الجديدة بكل ما فى روحه من عنف وما فى جعبته من هجو ، لأنها محاولة لغش الشعب الارلندى . وزعم أن العملة التى أرسلت الى نيوتن لاختبارها سـكت خصيصا لهذا الغرض ، وأن الكثرة الغالبة من أنصاف بنسات وود تساوى اقل كثيرا من قيمتها الاسمية ؛ والواقع أن بعض الاقتصاديين أيدوا دعواه بان قدروا أن ارلنده ستخسر ٤٨٠ر٦٠ جنيهـا بالاصـدار الذى اقترح اولا (٥٧) . وفى الرسالة الرابعة انتقل سويفت الى اتهام قوى للحـكم الانجليزى كله فى ارلنده ، ووضع هذا المبدأ « ان كل حـكم بغير رضي المحكومين ما هو الا العبودية بعينها (٥٨) » . واستجاب الارلنديون ، بما فيهم اغلبية البروتستنت لهذه النغمة الجريئة فى لهفة ، وراح الناس يغنون فى الشوارع أغانى شعبية تحض على مقاومة انجلترة . ووجـدت الحكومة الانجليزية نفسها تتقهقر أمام قلم واحد ، وهى التى تحـدّت شعبا باكمله قرونا طوالا . وقدمت مكافأة من ثلاثمائة جنيه للقبض عـلى الكاتب ، ولكن احدا لم يجرؤ على اتخاذ اجراء ضد الناظر العابس وان عرفه المئات منهم . كذلك لم يجرؤ اى ارلندى على أن يواجه غضب الشعب بقبوله العملة الجديدة . وسلم وليول بالهزيمة ، والغى الاصدار ، وعوض

وود بمبلغ ٢٤٫٠٠٠ جنيه نظير مصروفاته التى أنفقها عبثا ومكاسبه التى تبخرت .

وقد استحالت كل مقاومة للسيطرة الانجليزية الا أن تكون من فعل الغوغاء أو عنف الأفراد ، وذلك بسبب بنيان السياسة الارلندية . ذلك أن البرلمان الارلندى بعد ١٦٩٢ كان كله من البروتستنت ، لأن شرط المنصب كان الولاء للكنيسة الانجليزية (٥٩) ، وكان الآن خاضعا كل الخضوع لانجلترة . وفى ١٧١٩ أكد البرلمان الانجليزى من جديد حقه الأعلى فى التشريع لارلنده . فالقوانين التى حمت الحرية البرلمانية أو الفردية فى انجلترة ، كقانون هابياس كوربس وقانون الحقوق ، لم تطبق على ارلندة ؛ أما الحرية النسبية للصحافة ، التى كانت تتمتع بها انجلترة ، فلم يكن لها وجود فى ارلندة . ولم يكن بين البرلمانين شبه الا فى فساد ناخبيهما وأعضائهما . وكان بينهما خلاف آخر فى غلبة نفوذ الأساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات الارلندى .

كانت الكنيسة الرسمية تضم نحو سبع السكان بين أتباعها ، ولكنها تعتمد على العشور التى تجنى من الفلاحين ، وكل هؤلاء تقريبا كاثوليك. واتبعت نسبة صغيرة من السكان المذهب المشيخى (الكلفنى) أو غيره من المذاهب المنشقة ، ونالت قسطا من التسامح ، الا حقها فى مناصب الدولة . ولم يقتصر حرمان الكاثوليك على مناصب الدولة فقط بل تجاوزه الى كل المهن الراقية الا الطب ، وكل سبيل تقريبا الى التعليم العالى ، أو الثروة ، أو النفوذ (٦٠) . وحظر عليهم شراء الأرض ، أو الاستثمار فى رهون على الأرض ، أو حيازة أى ايجار طويل الأجل أو ذى قيمة . وحظر عليهم أن يكونوا محلفين الا عند الافتقار الى محلفين بروتستنت . ولم يكن فى استطاعتهم التعليم فى المدارس ، ولا التصويت للمناصب البلدية أو القومية ، ولا الزواج زواجا شرعيا من بروتستنتية (٦١) . وكان شرط عبادتهم أن يقوم بها كاهن سجل اسمه فى الحكومة وأقسم يمين التخلى التى تنبذ الولاء لأسرة ستيوارت . اما غير هؤلاء من الكهنة فعقابهم السجن . ولكن هذا القانون نادرا ما طبق بعد ١٧٢٥ ؛ وفى ١٧٣٢ ذكرت لجنة فى البرلمان الارلندى فى تقرير لها ان فى ارلندة ١٫٤٤٥ كاهنا ، و ٢٢٩ كنيسة كاثوليكية ،

و ٥٤٩ مدرسة كاثوليكية . وبعد ١٧٥٣ خفف الانجليز من غلوائهم وتحسنت حال الكاثوليك فى ارلندة .

وتضافر اضطراب الحياة الدينية ، وفقر الشعب ، واليأس من التقدم الاجتماعى ، ليهبط كل أولئك بمعنويات الحياة الارلندية . فهاجر الى فرنسا أو أسبانيا او أمريكا أكثر الكاثوليك كفاية وجرأة ، ممن كانوا قادرين على النهوض بمستوى الكفاية والذكاء والأخلاق الارلندية . وانحدر الكثير من الارلنديين الى درك التسول أو الجريمة اتقاء الموت جوعا . واختبأت عصابات اللصوص فى الريف ، واتخذ المهربون ولصوص السفن الغارقة من السواحل مكمنا ، واحتفظ بعض أصحاب الملكيات « ببلطجية » وصل عددهم أحيانا الى الثمانين لتنفيذ أوامرهم ، ضاربين بالقانون عرض الحائط . وذبحت العصابات الجوابة آلاف الماشية والاغنام ، انتقاما كاثوليكيا - على ما يبدو - من الملاك البروتستنت . وكان عسيرا على شعب أن يحترم القوانين التى يصدرها برلمان ارلندى طالما تحدث عن الكاثوليك - وهم ثلاثة أرباع السكان - بوصفهم « العدو المشترك » .

على أن الحياة الارلندية لم تخل من عناصر أكثر اشراقا . فقد بقى للشعب مزاجه البشوش ، الهادىء ، الضحوك ، خلال شدائده كلها ، وأحاطت خرافاته وأساطيره حياته بالسحر والشعر دون أن تفضي به الى عنف كذلك الذى اتسمت به اضطهادات السحرة والساحرات فى اسكتلندة والمانيا . وكان بين الاكليروس الأنجليكانى فى ارلندة علماء أفذاذ (كالأسقف آشر ، أسقف أرما) ، وفيلسوف نابه (هو جورج باركلى أسقف كلوين) ، وأعظم كتاب الانجليزية قاطبة فى الربع الأول من القرن الثامن عشر ، وهو جوناثان سويفت ، ناظر كتدرائية القديس باتريك . وجاهدت جمعية دبلن المؤسسة فى ١٧٣١ لتحسن التكنولوجيا فى الزراعة والصناعة ، وتحفز الاختراع ، وتشجع الفن . وكان هناك أمثلة كثيرة لأفراد من البروتستنت مدوا يد المعونة للكاثوليك الفقراء ، وقضاة لانوا فى تطبيق اللوائح الوحشية التى تضمنها قانون العقوبات .

ولكن صورة الحياة الارلندية كانت فى جملتها من أشد ما حواه التاريخ خزيا وعارا . فقر مذل ، وتمرد فوضوى على القانون ، واملاق مترحل ، و ٣٤٫٠٠٠ متسول ، وعدد لا حصر له من اللصوص ، وطبقة عليا تعيش فى اسراف مخمور بين فلاحين يتضورون جوعـــا ، وكل اخفاق فى المحصول يجر مجاعة واسعة الانتشار ـ « فالشيوخ والمرضي يموتون وينتنون من البرد والمجاعة والقذارة والحشرات (٦٢) » ـ على حد قول سويفت . هذه الصورة الرهيبة يجب أن تجـــد مكانا فى مفهومنا عن الانسان . وبعد الصقيع الطـــويل القاسي الذى أصــــاب ارلندة فى ١٧٣٩ جاءت مجاعة ١٧٤٠ ـ ٤١ القاسية ، التى هلك فيها حسب أحد التقديرات عشرون فى المائة من الســـكان ، مخلفين الكثير من القرى المهجورة . ففى مقاطعة كرى هبط عدد دافعى الضرائب من ١٤٫٣٤٦ فى عام ١٧٣٣ الى ٩٫٣٧٢ فى عام ١٧٤٤ . وقدر باركلى أن « الأمة فى أغلب الظن لن تعوض هذه الخسارة بعد قرن (٦٣) » ولكنه أخطأ التقدير . فما لبثت النساء أن ولدن الأطفال فى صبر ليعوضن من فقد من الموتى . وفترت الحماسة الدينية بين البروتستنت بانتشار التعليم ، واشتدت بين الكاثوليك كلما وحد الدين بينـــه وبين صراع الأمة فى سبيل الحرية . وسرعان ما عوضت النسبة العالية للمواليد ، التى حبذتها الكنيسة الكاثوليكية سلاحا سريا لها ضد معارضة ، عما سلبته المجاعة والوباء والحرب ؛ فما حلت سنة ١٧٥٠ حتى ارتفع ســـكان ارلندة من قـــرابة ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ فى ١٧٠٠ الى نحـــو ٢٫٣٧٠٫٠٠٠ وفى نهاية الشوط غلب ايمان المظلومين وخصوبتهم ســلاح الغـــزاة وجشعهم .

٧ ـ اسكتلندة : ١٧١٤ ـ ٥٦

لم كان حظ اسكتلندة مختلفا أشد الاختلاف عن حظ ارلندة ؟ أولا لأن اسكتلندة لم تقهر قط ، بل انها على العكس من ذلك أعطت انجلترة ملكا اسكتلنديا . وكان لها فى شيوخ قبائل مرتفعاتها (الهايلاندز) الذين لم يذلوا بعد ، طبقة من المقاتلين قادت الاسكتلنديين المرة بعد المرة فى غزوات لانجلترة . وكان أهل سهولها سلالة أنجلو ـ سكسونية ، ينتمون أساسا الى الأصل الذى ينتمى اليه الانجليز . أما تربتها فظلت،

في قبضة أهلها الشديدى المراس • وأما دينها ، شانه شان الانجليكانية ، فكان نتاج حركة الاصلاح البروتستنتى ، لا تركة موروثة عن الكنيسة الوسيطة ، وقد وحد صفوف الأمة بدلا من أن يقسمها ، وبعد قانون الاتحاد (١٧٠٧) شاركت اسكتلندة بنسبة السكان فى انتخاب البرلمان الذى أصبح الآن يسمى البرلمان البريطانى (أى الانجليزى - الويلزى - الاسكتلندى) ، وأذعنت لأن تحكم من لندن ، ولكن بعد أن انتزعت تنازلات تجارية اثرت الشعب الاسكتلندى • وحاولت كل أبرشية فى اسكتلندة أن تنشيء مدرسة لأطفالها ، ووفرت أربع جامعات بها أفضل ما وجد فى الجزر البريطانية آنئذ من تعليم عال • وقد ازدهر هذا النشاط التعليمى خلال القرن الثامن عشر فى حركة « تنوير اسكتلندى» دفعت الفكر الانجليزى دفعة قوية - أبطالها هيوم ، وهتشسن ، ورايد ، وروبرتسن ، وآدم سميث •

على أن هذا الانجاز الرائع اقتضي تحقيقه الكفاح الطويل ، وانقضت خمسون عاما قبل أن يؤتى الاتحاد أكله • فقد كانت اسكتلندة فى ١٧١٤ لا تزال قطاعية النظام • كل اقليم فيها خارج المدن يحكمه نبيل كبير بوساطة أتباعه المقطعين ، والأرض تفلحها طبقة من المستأجرين الفلاحين ، موالين لسادتهم ، ولاحظ لهم من التعليم • ولكن الاتحاد السياسي مع انجلترة أخذ الآن يقوض ذلك البناء • كان النبلاء يسيطرون على البرلمان الاسكتلندى ، فلما اختتم عهد ذلك البرلمان وجد الممثلون الاسكتلنديون فى البرلمان البريطانى أنفسهم فى بيئة ينافس فيها نفوذ التجارة والصناعة نفوذ الأرض ؛ فتبنوا الأفكار والتكنولوجيا الانجليزية ، وما وافت سنة ١٧٥٠ حتى كان أصحاب صناعات اسكتلندة وتجارها يتحدّون الزعامة القومية التى احتكرها الأرجيليون ، والأثوليون ، والهاملتونيون ، والماربون • وكانت مغامرة ١٧٤٥ الاستيوارتية آخر انتفاضة من انتفاضات السلطة الاقطاعية الاسكتلندية ، فلما أخفقت اندمجت حياة اسكتلندة الاقتصادية فى الاقتصاد الانجليزى ، وبدأ حكم الطبقات الوسطى • وفتح الاتحاد المستعمرات الانجليزية للتجارة الاسكتلندية ، وفى ١٧١٨ أطلقت جلاسجو أول سفينة اسكتلندية لتعبر الاطلنطى ، وما لبث التجار الاسكتلنديون أن انتشروا فى كل مكان • وتحسنت التكنولوجيا الزراعية

ووسائل النظافة الصحية فى المدن ، وهبطت نسبة الوفيات ، وزاد السكان من ٠٠٠ر٠٠٠ر١ فى ١٧٠٠ الى ٠٠ ر٦٥٢ر١ فى ختام القرن وكانت ادنبره بسكانها البالغين خمسين الفا فى ١٧٥١ ثالثة أكبر المدن فى بريطانيا العظمى ، فلم يفقها غير لندن وبرستول ٠

وظلت الكنيسة المشيخية على ولائها للاهوت الكلفنى ولاء يقرب من التعصب ٠ ففى كل أحد يمشي الناس – أحيانا ميلين أو ثلاثة – ليختلفوا الى كنائس عطلت من الزينة عطلا صارما ، ويستمعوا الساعات الى عظات وصلوات تؤكد حتمية الجبر وأهوال الجحيم ٠ وكان الكتاب المقدس الالهام اليومى لكل أسرة اسكتلندية ٠ وقدّر هيوم حتى سنة ١٧٦٣ ، فى مبالغة مرة ، أن لكل رجل وامرأة وطفل فى اسكتلندة كتابين مقدسين (٦٤) ؛ أما الوعاظ فقليلو الحظ من التعليم ولكن فيهم تقوى صادقة وورعا مؤثرا ، يعيشون فى بساطة متقشفة ، وتدعم قدوتهم وتعاليمهم من ثبات الخلق الاسكتلندى ونزاهته ٠ وكان شيوخ كل كنيسة وراعيها يراقبون فى تشدد كثير سلوك الرعية وكلامهم، يوزعون العقوبات على الحلف ، والنميمة ، والشجار ، والسحر ، والفسوق ، والزنا ، وأى كسر ليوم الرب (الأحد) ، وأى انحراف عن عقيدتهم الرهيبة ٠ وادان الرعاة الرقص ، وحفلات الزفاف ، والتفرج على المسرح ٠ واستمروا يعقدون المحاكمات بتهمة السحر وان أخذت احكام الاعدام بسببها تقل ٠ ففى ١٧٢٧ أدينت أم وابنتها بهذه التهمة ، وفرّت البنت ، ولكن الأم أحرقت حتى الموت فى برميل من القار (٦٥)٠ فلما الغى البرلمان الانجليزى (١٧٣٦) القانون الذى يعاقب السحر بالموت ، ندد شيوخ الكنائس الاسكتلندية بالالغاء لأنه انتهاك لأمر صريح أصدره الكتاب المقدس (٦٦) ٠

وكانت مدارس الأبرشيات التى تتفق عليها الكنيسة الاسكتلندية ، ومدارس الحضر التى تعينها المدن ، تعد الطلاب للجامعات ٠ فوفد على ادنبره وأبردين وسانت أندروز وجلاسجو شبان تواقون للعلم من كل طبقة – من المزارع والمصانع ومن قصور الاقطاعيين وقاعات البارونات على السواء ، يدفعهم الشوق الى المعرفة ، ويتحملون فى سبيلها كل عناء ؛ يعيش كثير منهم فى حجرات باردة على السطوح ، ويصيبون

أكثر غذائهم من زكيبة من الشوفان يحملونها دوريا من مزارع آبائهم . وكذلك كان الأساتذة قوما ذوى جلد وزهد ، ندر أن تقاضي أحدهم أكثر من ستين جنيها فى العام . وكاد اللاهوت فى الجامعات أن يكون لب المنهج ـ كما كان فى مدارس الأبرشيات . ولكن الآداب الكلاسيكية كانت تدرس ومعها قليل من العلوم ؛ وتأثر الذهن الاسكتلندى بفكر أوربا العلمانى . من ذلك أن فرانسس هتشسن ، الذى شغل كرسي الفلسفة الأخلاقية فى جلاسجو (١٧٢٩ ـ ٤٦) ، نحّى الجدل الدجماطيقى ، وارسي علم الأخلاق على أسس طبيعية . وشابت الهرطقة الأريوسية عقيدة الطلاب والأساتذة على السواء ـ وهى التى زعمت أن المسيح ، رغم الوهيته ، لم يكن معادلا لله الآب أو مساويا له فى أزليته . وذكر مؤلف اسكتلندى فى ١٧١٤ « الرواج الشديد بين شباب الأعيان والطلاب » لأفكار هوبز وسبينوزا (٦٧) . وكوّنت جماعات صغيرة من الشبان الذين ثملوا بخمر التحرر أندية ـ مثل « الجمعية الكبريتية » و « نار الجحيم » و « الفرسان سيئى السمعة » ـ تبشر بالالحاد فى تفاخر ؛ ولعلهم اختلطوا بالساخطين الاستيوارتيين . ذلك أن اسكتلندة ـ اذا استثنينا طبقات التجار التى ارتبطت بالاقتصاد الانجليزى ـ كانت لا تزال تنتشي بذكرى أسرة ستيوارت ، وتحلم باليوم الذى يقود فيه جيمس الثالث ، أو ابنه ، الاسكتلنديين مرة أخرى عبر الحدود ليرد أسرة اسكتلندية الى العرش البريطانى .

٧ ـ الأمير تشارلى الجميل : ١٧٤٥

كان جيمس الثالث قد أفنى نفسه فى محاولات عقيمة لقيادة حملة على انجلترة أو اسكتلندة . وفى ١٧١٩ تزوج ماريا كلمنتينا سوبيسكا ، حفيدة أشهر ملوك بولنده ، وكان الزواج تعسا ، ولكنه أعطى جيمس ولدا كان وجهه الحلو وطبعه المرح ـ اللذان ربما ارتدا الى مارى ملكة الاسكتلنديين ـ مفخرة ومشكلة لأبويه . واطلقت انجلترة على تشارلز ادورد ستيوارت هذا لقب « المطالب الشاب » ، أما اسكتلندة فسمته « الأمير تشارلى الجميل » . وشب تشارلز دون أن ينال من التعليم حظا كبيرا لأنه نشأ فى بيت يسوده الشقاق ، وتعلم مذهبين متناقضين على يد مهذبيه الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنه وُهب كل مفاتن الشباب

الرياضي ، وكل حماسة الرأس الملهوف على تاج . وقد افتتن دون ليريا بما كان عليه الغلام من « جمال رائع » ، بعينيه العسليتين المرحتين ، وشعره البنى الفاتح ؛ فهو راكب جرىء ، وهداف ماهر ، ذو قوام فارع طوله ستة أقدام خلق للحرب ، و « لاعب جولف جبار » ، وموسيقى ماهر ، وراقص رشيق — وقال الدوق ان هذا « على الجملة أكمل أمير لقيته (٦٩) » وكان تشارلز عليما بفضائله ، وهو ما جعله صعب المراس أحيانا . وفى ١٧٣٤ ، حين كان غلاما بعد لا يجاوز الرابعة عشرة ، سمح له بان يذوق طعم الحرب فى الجيش الاسبانى فى جاييتا ، فلما أيقظ روحه خوض أول معاركه ، راح يترقب الفرصة على أحر من الجمر للاستيلاء على انجلترة . وبدت الفرصة مواتية حين بدأ البرلمان البريطانى ، رغم معارضة ولبول ، الاستباكات مع أسبانيا (١٧٣٩) . واستفحل هجوم فردريك الأكبر على سيليسيا (١٧٤٠) حتى افضي الى حرب الوراثة النمساوية . وأرسلت انجلترة جيشها الرئيسي الى القارة ، فاى وقت أنسب من هذا ليضرب فيه الاستيوارتيون ضربة سريعة أخرى للظفر بالعرش الانجليزى ؟ ومن ثم كونوا فى سكتلندة « الرابطة » (١٧٣٦) التى التزمت بتلك المغامرة ، وأوفدوا المبعوثين الى انجلترة ليحرضوا على قيام ثورة استيوارتية ، وأرسلوا النداءات الى فرنسا طالبين المال ، والسلاح ، والجنود . وامر لويس الخامس عشر سبع سفن حربية واحدى وعشرين ناقلة جنود بالتجمع فى برست والاستعداد لنقل عشرة آلاف مقاتل تحت امرة المريشال دساكس من دنكرك الى انجلترة . وانتظر الأمير تشارلز فى ايطاليا بفارغ الصبر دعوة من باريس لينضم الى الحملة . ولكن الدعوة لم تصل ، فغادر روما فى ١٠ يناير ١٧٤٤ ، وركب ليل نهار الى فراسكاتى ، وليريتشي ، وجنوة واستقل سفينة الى آنتيب ، وركب كالمجنون الى باريس . اما أبوه المسن فظل فى روما ، ولم تقع عليه عيناه بعد ذلك قط . واستقبل الملك تشارلز بالترحيب ، وامده بمعونة مالية معتدلة . فمضي الى جرافلين ، وانتظر بصبر نافد الأوامر بالابحار مع المرشال دساكس ، الذى انتظر الأسطول الفرنسي هو الآخر بصبر نافد .

وحالفت الرياح والأمواج انجلترة كالعادة . فصادف الأسطول الفرنسي بعد اقلاعه من برست (٦ فبراير) « بحرا رهيبا » و « ريحا

معاكسة كل يوم » . واصطدمت مراكبه ، وتحطمت صواريه ، وعمت الفوضي حين وصل نبأ بأن أسطولا انجليزيا من اثنتين وخمسين سفينة يقترب . وفر الفرنسيون رجوعا الى برست ، ولكن كثيرا من سفنهم فقد ، وأصيب الباقى بضرر بليغ من الأنواء . ومع هذا النبأ المثبط وصل فرنسا نبأ بأن الاستيوارتيين الانجليز مختلو النظـــام خائرو العزيمة ، وأنه لا أمل فى معونة منهم اذا وصل الفرنسـيون . وأخبر لويس ساكس بوجوب الاقلاع عن مشروع الغزو . أما انجلترة ، التى لم تدخل بعد الحرب مع فرنسا رسميا ، فشكت من أن وجود تشارلز على أرض فرنسا انتهاك لالتزامات المعاهدة . وأما تشارلز فقد اختبـأ فى باريس متنكرا ، وأقسم لأصحابه أنه سـيغزو انجلترة ولو اضطر الى الذهاب وحيدا فى زورق مكشوف . وأرسل له أبوه رجاء بأن يحـذر الاندفاع « الذى قد ينتهى بدمارك ودمار كل من يشاركونك فيه (٧٠) ». وفى أثناء ذلك كان مؤيدو تشارلز يدس بعضهم لبعض سعيا وراء النفوذ والمنح ، ويتهم بعضهم بعضا عنده ، حتى كتب يائسا « لقد ابتليت بلاء يزهدنى فى الحياة » (١٦ نوفمبر ١٧٤٤) .

واخيرا ، ورغم كل التحذيرات ، ودون استشارة البلاط الفرنسي ، قرر أن « يجرب حظه » و « يغزو أو يموت » وارسـل عمـــلاء الى اسكتلندة ليثير العشائر ، وبلغ عدم استعداد هؤلاء مبلغا جعلهم يفكرون فى منعه من المجىء ، وكان المتشيعون من الانجليز لأسرة ستيوارت ، يلتمسون التراضي مع جورج الثانى ، محتذين فى ذلك حذو بولنبروك . ورغم ذلك اقترض تشارلز ١٨٠٫٠٠٠ جنيه ، وقبل عرضا بسفينتين مسلحتين ، وأبحر الى اسكتلندة (١٥ يوليو ١٧٤٥) . وعلى مقربة من « لاندز اند » التقت القافلة الصغيرة ببارجة بريطانية ، ولحـق باحدى سفينتى تشارلز من العطب ما حملها على العودة الى برست . وانطلق هو فى الأخرى شمالا الى غربى انجلترة ، وفى ٣ اغسطس رسا على أرض اسكتلندة عند اريسكا ، فى جزر الهبريد الخارجـــة . ونصحه زعيم عشيرة بأن يعود الى وطنه . فاجاب الأمير « اننى فى وطنى » . و"أنذر بأن الحكومة البريطانية قد أعلنت فى أول أغسطس عن مكافأة تبلغ ٣٠٫٠٠٠ جنيه لمن ياتى به أسيرا ، حيا أو ميتا . وكان جواب تشارلز أن صرف السفينة التى اقلته ، وهكذا قطع على نفسه خط

الرجعة • وفى ١٩ اغسطس رفع رايته فى جلينفينان باقليم المرتفعات ، ودعا كل انصار أسرته ليعينوه •

وظل معظم زعماء العشائر متحفظين ، وتآمر بعض من زعموا انهم أتباع له ليشوا به ، واعلن ستة أشراف انضمامهم اليه ، وكان ألف ومائتان من بين رجاله الألفين من عشيرتى مكدونلد وكمرون • وقاد تشارلز جماعته جنوبا متحاشيا قوات الحكومة التى يقودها السر جون كوب • وفى ١٧ سبتمبر دخل ادنبره ، واستولى على المحرس والبوابات ، وثبت رئيسهما فى قصر هوليرود ، الذى كان يوما ما القصر الملكى الذى جادلت فيه مارى ستيوارت جون نوكس ، ونسي فيه جيمس السادس والأول أمه • وكان مظهر الأمير البالغ من العمر آنئذ خمسة وعشرين ربيعا يأخذ بالألباب فى بزة أهل المرتفعات ، بسراويله المخملية الحمراء وقلنسوته المخملية الخضراء ، وعقدة شريطها البيضاء • وركع كثير من الاسكتلنديين الذين ظنوا أن مجد أمتهم قد عاد من جديد فى شخص ذلك الفتى المليح وقبلوا يده ، وصلت كل النساء من أجله وهفت قلوبهن اليه • وما كاد يذوق حلاوة استقباله حتى نمى اليه نبأ اقتراب كوب من ادنبره فى الفين من جنوده • وفى ٢١ سبتمبر قاد تشارلز رجاله الذين بلغوا الآن ثلاثة آلاف ، والتقى بجيش كوب برستونبانز ، ودحره ، وأسر أسري كثيرين ، وترفق بهم ، ثم عاد الى هوليرود مكللا بالغار ، وبدا أنه قد ظفر باسكتلنده •

وأمر تشارلز وهو مطمئن شهرا بعد المعركة بالطعام والثياب لجنده ، ورحب بانضمام عشائر أخرى اليه • وبعث له لويس الخامس عشر بالمال والسلاح من فرنسا • وفى ٨ نوفمبر عبر الامير السعيد الحدود راجلا الى انجلتره على رأس ٤٫٥٠٠ مقاتل ، وحاصر كرليل واستولى عليها ، ولقى الترحيب فى مانشستر ، ثم سار حثيثيا الى داربى ، آملا بتقدمه المثير أن يحمل انجلتره على استقباله ملكا شرعيا لها • واذاع منشورا تعهد فيه بانه لن يصيب الانجليكان والمشيخيين بعد اليوم منه ، وهو الكاثوليكى الرومانى ، أذى أكثر مما أصابهم على يد جورج الأول اللوثرى (٧٢) • غير أن انجلترة لم تصدقه ، وكرهت أن تعاود من جديد ذلك الصراع المضنى الذى بخاصه المذهب الجديد ضد القديم •

ومع أن أحدا فى انجلترة لم يكد يهب" ليقاوم تشارلز ، فان حفنة من الجند الانجليز فقط هى التى خفت لنجدته • واتخذ الانجليز المتشيعون لأسرة ستيوارت موقف الحذر والسلامة •

وكان جورج الثانى قد هرع عائدا من هانوفر ليحمى عرشه المهدد وامر ثلاثة جيوش انجليزية بالتجمع فى داربى • وكان رأى تشارلز أن يتجاهلها ويندفع فى طريقه الى لندن بآلافه الستة ، ولكن زعمـــاء عشائره الاسكتلنديين أبوا أن يتبعوه • ونبهوه الى أن كل جيش من جيوش الحكومة الثلاثة عدته عشرة آلاف مقاتل ، وأن هؤلاء اذا لحقوا بمؤخرة جيشه ضيقوا عليه الخناق وتكاثروا عليـه بعد قليـــل ، وأن الانتفاضة الاستيوارتية التى وعدهم بها لا أثر لها ، وأصروا على العودة الى اسكتلندة حيث يتاح لهم أن يثيروا مزيدا من العشائر ويتلقوا الامداد من فرنسا • واذعن تشـــارلز ، وقاد التقهقر الأليـــم من داربى الى جلاسجو • وعند فالكرك القريبة منها هزم بتسعة آلاف مقاتل قوة انجليزية عدتها عشرة آلاف بقيادة هولى (١٧ يناير ١٧٤٦) • ولكنه كان نصرا باهظ الثمن ، فقد أضعفت جيشه الخسائر وهروب الجنود منه ، وكانت أمداده آخذة فى النضوب ، ورواتبه تدفع دقيقا ، وقواده يتشاجرون شجار العشائر • وعادوا ينصحونه بالتقهقر ، ودافع الأمير عن رأيه فى الصمود ، فهو لم ير فى المزيد من التقهقر غير التفكك والدمار ، فلم يهربون من عدو ليس أقوى من ذلك الذى هزموه من قبل ؟ ثم أذعن مرة أخرى ، ولكنه أيقن الآن أنه مغلوب • وعاد الجيش الاسكتلندى متجها الى اقليم المرتفعات • وسرى تشاؤم قواده بقوة فى صــــفوف الجند ، فبلغ الهاربون منهم الوفا ، وما بقى كان أقرب الى الحشد المختل اليائس منه الى الجيش •

وخلال ذلك دخلت القوة الانجليزية الرئيسية بقيادة دوق كمبرلاند اسكتلنده ، وسيطرت على الساحل الشرقى ، وتلقت عند ليث تعزيزا من خمسمائة هسي جلبهم جورج الثانى من النمسا • وزحف كمبرلاند بجيش عدته ٨ر٨٠٠ مقاتل شمالا مخترقا مقاطعة انفرنيس • وهناك التقى به تشارلز عند كلودن مور فى ٦ أبريل ١٧٤٦ ، بسبعة آلاف مقاتل

سيئى السلاح والغذاء والقيادة ، قاتلوا ببسالة اسكتلندية ، ولكن بطشت بهم مدفعية كمبرلاند المتفوقة التى قذفت قنابل الشظايا (كما قال شاعر اسكتلندى) « أكياسا من الرصاص حصدتهم حصدا ، أجل بالعشرات ، كما يتساقط العشب أمام المنجل (٧٣) » . وركب تشارلز هائجا ، وحاول جمع شتات رجاله المتقهقرين ، ولكنهم لاذوا بالفرار منطلقين فرادى ، وأرغمه مساعدوه على الانسحاب من المعركة بالقبض على عنان جواده . ففر فى نفر من أصحابه وقد تحطمت روحه ، وهام على وجهه مختبئا من ملجأ الى آخر ، مكررا مأساة تشارلز الثانى ، بعد ان فارقه المجد . وأخيرا (٢٠ سبتمبر) وجد مركبا أقله لفرنسا .

وطارد كمبرلاند أعداءه المدحورين وأصدر أوامره لجيشه « بالا تأخذه بهم رحمة » . فكل اسكتلندى ثائر يجب قتله فورا . وفتشت البيوت ، وضرب بالنار على عجل كل الاسكتلنديين الذين عثر على سلاح معهم . وأطلقت العشائر الموالية لجورج الثانى على تلك التى انضمت الى الثورة ، وأحرقت مئات المنازل(٧٤) . وقال الدوق « ان الاجراءات المعتدلة لن تجدى ، وكل الخير الذى صنعناه ليس الا فصدا ضئيلا لم يشف من الجنون وان خففه (٧٥) » . والحق أن العشائر المتمردة حاولت المرة بعد المرة أن تجدد التمرد . وظل دعاة الاستيوارتية الاسكتلنديون يتغنون ويحلمون بهزائم الماضي وانتصارات المستقبل ، الى أن تحطم ايمانهم بالانحلال الذى أصاب من كان يوما أميرهم الجميل فى روما .

ذلك معاهدة اكس – لا – شابل (١٧٤٨) المبرمة بين انجلترة وفرنسا اشترطت طرد تشارلز من الارض الفرنسية . ولكنه رفض الرحيل ، فأكرهته عليه الجنود الفرنسية ، وعاد متنكرا الى باريس ، لا بل الى لندن فى ١٧٥٠ ، وعبثا حاول أن ينفخ روحا جديدة فى قضية الاستيوارتيين ، وأن يعد بالتخلى عن المذهب الكاثوليكى (٧٦) . وأخيرا ، وبعد أن سلم بالهزيمة ، تردّى فى مهاوى السكر والفسق ترديا حمل كل القوى الكاثوليكية الكبرى على التنكر له . ومات فى روما عام ١٧٨٨ ، بالغا الثامنة والستين . وكان فولتير قبل ذلك

بثلاثين عاما قد كتب قبرية منصفة للثورة الاستيوارتية الثانية قال فيها:

« وهكذا ، (برجوع تشارلز الى فرنسا فى ١٧٤٦) انتهت مغامرة كان من الجائز أن توفق فى أيام الفروسية الجوالة بحثا عن المغامرات ، ولكن ما كان يمكن أن تنجح فى عصر يقرر فيه الانضباط العسكرى ، والمدفعية ، وأهم من ذلك المال ، كل شيء فى نهاية الأمر (٧٧) » .

٩ ـ صعود وليم بت : ١٧٠٨ ـ ٥٦

اسلم سقوط ولبول انجلترة الى سلسلة من الوزارات الصغيرة التى تخبطت فى فوضي سياسية وحروب غير حاسمة . فحكم اللورد ولمنجتن بوصفه وزير الخزانة (١٧٤٢ ـ ٤٣) فى أرض الوطن بينما كان جورج الثانى يقاتل ببطولة مسرحية ، ولكنها حقيقية ، فى معركة ديتنجن (٢٧ يونيو ١٧٤٣) . كتب فردريك الأكبر يقول « لزم ملك انجلترة مكانه على رأس كتيبته الهانوفرية طوال المعركة ، وقدمه اليسرى الى الخلف ، وسيفه فى يده وذراعه مبسوطة ، أشبه ما يكون بمعلم المثاقفة (٧٨) » ، ولكنه على أى حال الهم رجاله بشجاعته ، فى حين أطاع فى تواضع أوامر قواده . وأعادت وزارة هنرى بلام (١٧٤٣ ـ ٥٤) انجلترة الى حظيرة السلام ، ولكنها واصلت طريقة الحكم بشراء الأصوات فى الدوائر والبرلمان . وحدّد أخوه دوق نيوكاسل تسعيرة لساسة انجلترة ، ضمّنها ـ لدواعى الموازنة ـ جدولا بسعر السوق الحالى لكل نفس (٧٩) وابقى مأثرة لهاتين الوزارتين انهما ضمتا الرجل الذى صنع الامبراطورية البريطانية ، والذى برز فى زمانه المضطرب ذاك شخصية من أقوى شخصيات التاريخ .

ولد وليم بيت (١٧٠٨) ابنا للمال ، لأن جده توماس بت كان جمع ثروة طائلة فى الهند . وكان توماس نفسه رجلا يحسب له حساب . فقد عمل بحارا فى سفينة تجارية واستقر فى البنغال ، واشتغل بالتجارة فى منافسة مشروعة لشركة الهند الشرقية التى كان البرلمان قد منحها احتكارا . وقد غرم ١٠٠٠ر١ جنيه ، وواصل منافسته للشركة ، وأكرهها على الصلح ، ثم انضم اليها ، وظل اثنتى عشرة سنة حاكما على

obeikandi.com

مدراس . فما حل عام ١٧٠١ حتى كان قطبا ماليا يملك من المال ما مكنه من شراء « ماسة بت » الشهيرة بعشرين الفا من الجنيهات ، ومن الذكاء ما مكنه من بيعها لفليب أورليان ، الوصي على عرش فرنسا ، بمبلغ ١٣٥٫٠٠٠ جنيه ، وهى محفوظة الآن — بعد أن ارتفعت قيمتها الى ٤٨٠٫٠٠٠ جنيه ، بين مجوهرات الدولة الفرنسية فى متحف اللوفر شاهدا متألقا على هبوط العملات . واستثمر توماس مكاسبه فى العقارات الانجليزية ، واشترى مقعدا فى البرلمان ، ومثل فيه دائرة أولد ساروم « العفنة » من ١٧١٠ الى ١٧١٥ . وأوصي بممتلكاته لروبرت بت ، أكبر أبنائه الذى تزوج هاربيت فليبه ، التى انجبت له سبعة أطفال ، كان وليم بت ثانى ولد فيهم .

واحتج وليم على النظام المفروض على الطلاب وهو فى ايتن ، وذهب إلى ن تسخير كبارهم لصغارهم يحطم روح الطلبة ؛ على أنه لم يحطم روحه .. وقد اشتهر فى اكسفورد بمعاناته من النقرس وهو فى الثامنة عشرة . وإذ راوده الامل فى البرء من هذا الداء اذا عاش فى مناخ أدفا ، فانه ترك الجامعة دون ان يحصل على درجة منها وسافر الى فرنسا وايطاليا ، ولكن النقرس ظل صليبه الذى حمله طوال انتصاراته . ومع ذلك انخرط فى الجيش ، وخدم فيه أربع سنين ، ولم يشهد معركة ، ولكنه خرج مقتنعا بان الحرب هى فيصل التاريخ وقدر الدول . وفى ١٧٣٥ اشترت له اسرته أصوات دائرة أولد ساروم، رغم نها تركته فى فقر نسبى باعتباره ابنا أصغر ، وهكذا بدأ سيرته فى البرلمان .

وسرعان ما أسمع الناس صوته هناك ، لأنه كان أبلغ خطيب عرفه كهف الجدل والمناظرة ذاك اطلاقا . فلقد سكب فى خطبه كل قوة خلقه العاطفى المشبوب ، وكل تصميمه على الوصول الى السلطة ، وعزمه على خلع ولبول ، وعلى السيطرة على البرلمان والملك ، واخيرا اعادة تشكيل أوربا على هواه . وتحقيقا لهذه الأهداف توسل بالمنطق ، والدراما ، والخيال ، والحماسة ، والشعر ، والعبارة الطنانة ، والقدح والتهكم ، والهجو واستنفار الروح الوطنية ، واستثارة المصلحة والمجد الشخصيين والقوميين . وبمضي السنين طور براعته الخطابية حتى

استوعبت كل أفانين الخطباء المفوهين كديموستين أو شيشرون ؛ فكان فى وسعه أن يحطم خصما بعبارة واحدة . وقد اتبع قاعدة ديموستين فجعل الحركة حياة الخطاب ، فكان لكل سطر ايماءته ، وكانت كل عاطفة تشكل وجهه الشبيه بوجه الصقر وتتقد فى عينيه الغائرتين ، حتى لينفعل بدنه كله وكأن الكلمة صارت جسدا . لقد كان أعظم ممثل أجتنب خشبة المسرح .

ولم يكن وليا ولا قديسا . فالطمع كان صارى خلقه والريح التى تدفع فى قلوعه . ولكن هذا الطمع كفر عن نفسه بانتظامه انجلترة بأسرها ، وأفنى نفسه بجرِّه انجلترة ، رضيت أو كرهت ، فوق البحار الامبراطورية لبلوغ السيادة على العالم . واذ شعر وليم بأنه الصوت المعبر عن الدولة أكثر من أى صوت حَلْقِى هانوفرى ، أو أى رشا ولبولية ، فقد اتخذ لنفسه مبدأ الحكومات الخُلُقى — وهو أن كل ماينفع الدولة فهو خير ؛ واذا كان قد توسل بالخديعة ، والافتراء ، والتخويف ، والدس ، ونكران الجميل ، والحنث باليمين ، والغدر ، فان تلك بضاعة رجل الدولة ، ولا يحكم عليها الوعاظ بل الملوك . وكان فى كل خطوة تقريبا فى صعوده يتنكر لموقف دافع عنه قبيل ذلك بكل سمو العاطفة الخلقية (٨٠) ، وندر أن توقف ليُفسِّر أو يعتذر ، بل كان يركب كل مركب يُبلِغه هدفه ، وقد أضفى نجاحه — الذى كان نجاحا لانجلترة — القداسة على ذنوبه وطوق رأسه بهالة المجد والفخار . وكان فى كبريائه شيء جليل ؛ فقد كان يحتقر شراء الترقى بالتذلل ، واحتفظ بنظافة يده وسط الفساد والرشوة ، وحقق غاياته بقوة شخصية عاتية لا يقف فى طريقها عائق .

وقد طارد ولبول لأنه رأى بائعا يتجر بالسلام ، وانسانا جبانا لا يجرؤ على خوض حرب ضد أسبانيا ، شديد الخنوع للملك يبدى — فى رأى بت — « نحو هانوفر تحيزا سخيفا ناكرا للجميل غادرا » ، ملك « لا يعتبر انجلترة غير اقليم من أقاليم امارة حقيرة (٨١) » . ولقد واصل الخطيب الغيور سياسته الحربية فى قوة وحدة حملت دوقة ملبره وهى على فراش الموت سنة ١٧٤٤ على أن توصي لبت بعشرة آلاف جنيه ، ولا غرو فقد ورثت سارة ولع زوجها الدوق الراحل بالحرب .

فلما تقلد بلام الوزارة طلب الى الملك تعيين بت وزيرا للحرب ؛ ورفض جورج الثانى وكان لا يزال محترقا بنار بت ، ولكن بلام الح ، ووصف بت بانه « اكفأ وانفع رجل بيننا ، شريف حقا وامين بكل ما فى الكلمة من معنى (٨٢) » ، واذعن الملك ، وفى ١٧٤٦ دخل بت الوزارة ، أولا بوصفه مناويا لوزير الخزانة الارلندية ، ثم خازنا للقوات المسلحة . وكان هذا المنصب قد أصبح بحكم التقاليد منجم ثروة لمن يتقلده ، فالخازن ياخذ لنفسه نصفا فى المائة من جميع الاعانات التى يقررها البرلمان للأمراء الاجانب ، ويستثمر بالفائدة - التى يحتفظ بها لنفسه - الرصيد السائل الكبير المتروك لديه لدفع رواتب الجند . وابى بت أن ياخذ غير راتبه الرسمى ، فلما الح عليه ملك سردانيا فى أن يقبل هدية تعادل الاستقطاع العادى من اعانته رفض الهدية . وصفقت انجلترة لنزاهة بت الشاذة ، وهى التى طالما اعتبرت مثل هذه المنح اشباعا عاديا لطبيعة الانسان ، واصغت فى شوق الى مرافعاته المطالبة ببريطانيا شامخة الراس فوق العالم باسره .

وفى يناير ١٧٥٥ ، ودون اعلان للحرب ، نشب القتال بين انجلترة وفرنسا فى أمريكا . وفى يناير ١٧٥٦ وقعت انجلترة معاهدة مع بروسيا . وفى مايو ابرمت فرنسا حلفا دفاعيا مع النمسا . وفى نوفمبر أصبح بت ، وزير الخارجية الآن ، صوت انجلترة وذراعها فى حرب السنوات السبع تلك التى ستقرر خريطة أوربا حتى الثورة الفرنسية .